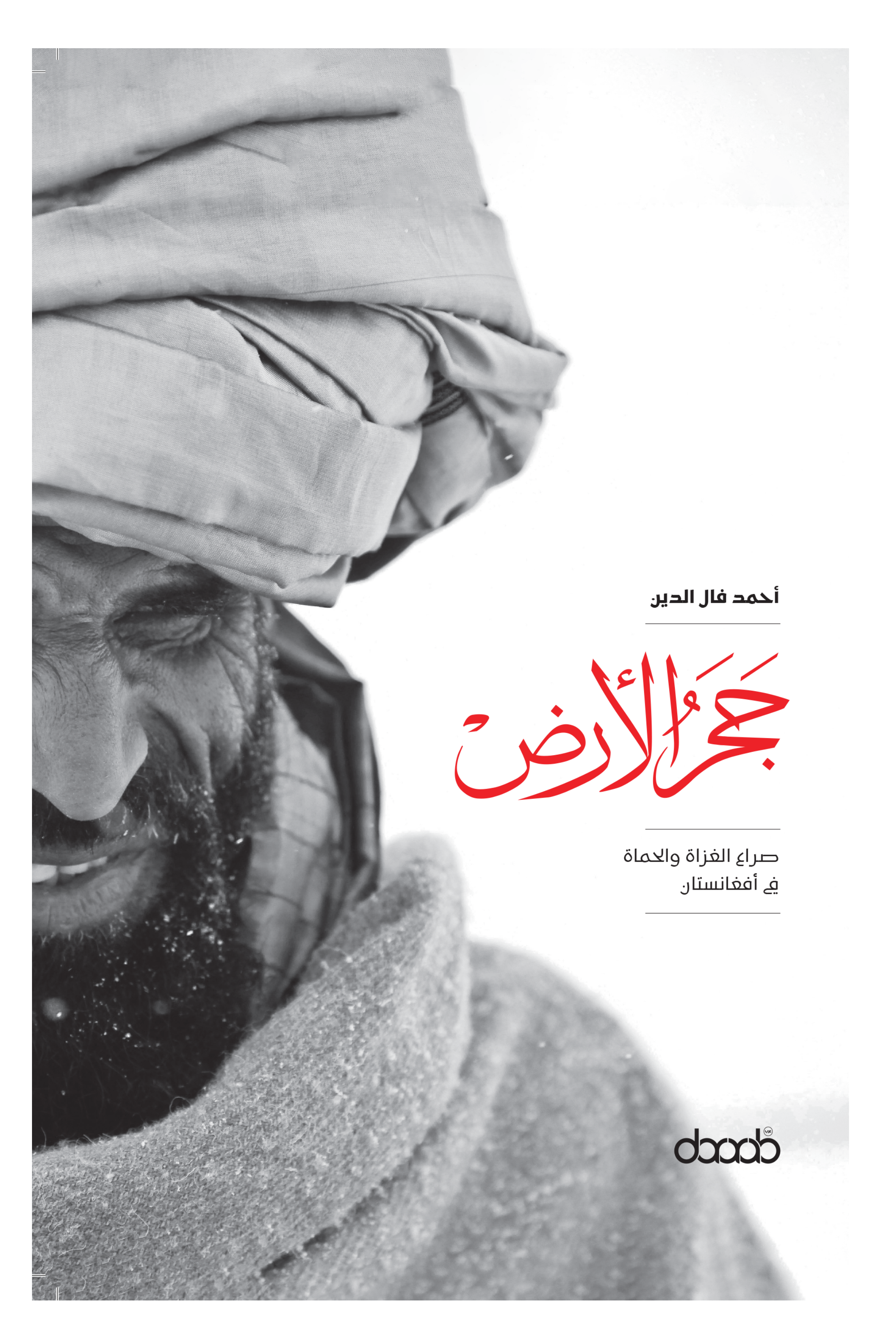

أحمد فال الدين
جمر الأرض
صراع الغزاة والحماة
في أفغانستان

حجر الأرض

أحمد فال الدين

حَجَرُ الأرض

صراع الغزاة والحماة في أفغانستان

(ثقافة – سياسة)

Ahmed Vall Dine

The Sone of The Earth

The Game between invaders and protectors in Afghanistan

(Culture and Policits)

الطبعة الأولى 2022

ISBN 978-1-78871-035-0



دار عرب للنشر والترجمة

DAR ARAB FOR PUBLISHING & TRANSLATION

info@dararab.co.uk

www.dararab.co.uk

تصميم الغلاف: **حسّان المحتسب**

التصميم الداخلي: **ناصر البدري**

أحمد فال الدين



صراع الغزاة والحماة في أفغانستان



2022

محتويات الكتاب

إهداء...

إلى ريتشل كوري وأبي عثمان الجاحظ

قبلُ

عندما تحركت الدبابات السوفيتيةُ جنوبا لغزو أفغانستان مساء 24 ديسمبر/ كانون الأول 1979؛ كان كاتب هذه الحروف رضيعا. ومنذ تلك اللحظة وأفغانستان ساحة حرب ومكايدة بين الإمبراطوريات المتشاكسة. فلم تعرف أرضُ الأفغان استقرارا في تاريخها الحديث إلا ما بين استقلالها عن الإنكليز 1919، وذلك المساء الشاتي الذي بيّتتْها فيه دباباتُ الجيش الأحمر.

غير أن الصراع على أفغانستان أخذ منعرجا ملحميا يوم غدتْ سفوحُها ووهادُها مسرحا لأقوى قوة في التاريخ الحديث: الولايات المتحدة الأمريكية. فمنذ عبرتْ المقاتلات الأمريكية جبال الهندوكوش مساء السابع من ديسمبر/ كانون الأول 2001 عادت أفغانستان مرةً أخرى لفصل آخر من فصولها مع الغزاة.

لقد كانت هذه الحقائق في ذهني وأنا أحزم حقائبي مسافرا إليها، موفدا من قناة الجزيرة لتغطية خروج الأمريكيين منها، ودخول طالبان إلى عاصمتها. كنت أستشعر أنني أكتب الأحرف الأولى من تاريخ صحفي سيبقى. كما كنت أحس، وأنا أجول بين مدنها وقراها، ذلك الدبيب الداخلي المنعش الذي يستشعره كل مؤرخ، أو واعٍ بالتاريخ في الأماكن المفعمة بالعنفوان الحضاري. فليست جبال أفغانستانَ مكانا رماديا متواريا عن رياح التاريخ، بل ظلت منذ القِدم حلْبةً مدهشة لنجاحات الإنسان وتعاساته، ومسرحا رحبا لبرهنة الإنسان على إنسانيته المتوثبة، وشيطانيته الدَّرَكية.

إذْ كانت أفغانستان تاريخيا بؤرةَ استقطاب لصُنّاع الحضارات ومقوِّضيها منذ الإسكندر الأكبر، والأكاسرة، وجحافل جينكيزخان. وظلت تلك

البقعة – دوما– ممرا أبديا للغزاة والتجار، والفرسان والشعراء، والأولياء والعبيد.

لكن ولع الغزاة بهذه البلاد يقابله عنادٌ ملحمي من أبنائها. فقد ظل الإنسان الأفغاني صخرةً من صخور الهندوكوش صعبة الاقتلاع، راسخة راسية. فقد برهن الأفغاني طيلة تاريخه أنه تجسيدٌ حيّ للعبارة التي وصف بها زعيمُ الدعوة العباسية قائدَه العسكري أبا مسلم الخراساني من أنه «حجر الأرض». وهي عبارة كثيفة الدلالة تشير إلى ثبات الجنان، وصلابة الوجدان، والتشبث بالمكان.

هذه الحقائق دعتني إلى كتابة هذه الفصول لوضع الأحداث المتكشفة في أفغانستان ضمن سياق أرحب. إذ حاولت ألا أكون مثل كثير من الصحفيين الذين يعميهم الخبرُ اليومي الجافّ المنبتُّ عن جذوره التاريخية، وشروطه الحضارية. فلعلَّ النظرةَ الفوقية المازجة بين اليومي والتاريخي، واللحظي والحضاري، تمنح المرءَ ثباتا في عالم متقلب، وتمده بفهم ليوميات الأخبار المتلاحقة. ولذا آثرت كتابة هذه الفصول سريعا[1] لتخرج أثناء تكشّف الأحداث علّها تساهم في خلع بعض المعاني عليها.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

أحمد فال بن الدين

الدوحة، 29 ربيع الأول، 1443ه، الموافق 04 نوفمبر/ تشرين الثاني، 2021.

---

1. أشكر الأصدقاء الذين قرؤوا المسودة رغم ضيق الوقت. محمد المختار بن أحمد (أبا نزار)، ومحمد المختار الشنقيطي، وأسلم فاروق، وعبد القدوس الهاشمي.

مدخل: من كانساس إلى كابل

أسوار خراسان

«كانت حربُ أفغانستان – دون شك– فشلا استراتيجياً مُريعا»!

رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة الجنرال مارك ميلي في شهادته أمام الكونغرس

لامست عجلات الطائرة أرضيةَ كابل. كانت الفكرة التي راودتني أنّا نتحرك عكس الغريزة البشرية، فالناس يهربون ونحن ندخل! وقد اقتضت الاحتياطات الأمنية ألا نخرج خروجا طبيعيا من المطار الذي كان منطقة عسكرية تخضع لأقصى درجات الحيطة والحذر العسكريَيْن. رفع القبطان صوتَه متحدثا إلينا من المسمِّع عن كيفية الخروج ومحاذيره، لكن ضوضاء الطائرة التي أقلتنا من الدوحة إلى كابل كانت تُصمّ الآذان. انفتح بابُ الطائرة الخلفي فلاحتْ أنوار كابل تتلألأ على الجبال المحيطة بالمدينة.

خطونا الخطوات الأولى على أديم كابل. ما إنْ ترجلنا حتى داعبتْنا أنسامُ جو جميل لا يشبه حرّ الدوحة الذي خلفناه وراءنا قبل ساعات. كان الجو يرتجف توترا رغم الهواء المنعش. آلاف الجنود –من الأمريكيين وغيرهم– يُشهرون أسلحتهم، وآلاف الأفغان يزحفون في طوابير طويلة رجالا ونساء وأطفالا، يتشبث بعضهم ببعض في طوابير حلزونيةٍ حيرى. أول ملاحظة صدمتني هي أن كابل لا تعرف ترف الكمامات الكوفيدية، لكأن الكمامة ترفٌ مُدَّخَرٌ لطيّب البال خَليِّ القلب. أما من يعيش تحت أزيز الطائرات

ودويّ الانفجارات فمستثنىً من ترف الاحتياطات الكوفيدية.

وجدنا المطار وقد تحوّل إلى معسكر للجنود تحت الظلام المخيم. تلفتُ فلم أر إلا جنديا لا يكاد يبدو شيء من جسده؛ بزةٌ عسكرية خشنة، وأسلحةٌ كثيرة متعلقة بأطراف جسمه لا تشكل البندقية إلا واحدة منها. سرنا تحت عيونهم بترقب. كأن كل خطوة نخطوها تشكل خطرا على شخص ما لشدة الاحتياطات الأمنية. كأن كل قدم تقع على الأرض حدثٌ يستفز مسلحا ما. عادت بي الذاكرة أربع سنوات، إلى أكتوبر/ تشرين الأول عام 2017، يوم نزلتُ هنا في مطار حامد كرزاي الدولي وتقدمتُ مع مئات الركاب العاديين جهة موظف الجوازات. لا شيء من كل ذلك الآن.

تقدمنا بين جدران المطار السميكة متجهين إلى بوابة الخروج. ما إن اقتربنا منها حتى نهرنا جندي أمريكي: إلى أين؟ مستغربا كيف يكون آلاف الناس متكدسين أمام البوابات حالمين بدخول المطار ونحن نخرج طائعين منه! أجبناه: نريد أن نخرج.. نحن صحفيون. قال جندي لأحد الزملاء: كنت أظن الجنون مقتصرا على العسكريين، أما الآن فأعترف بأن الصحفيين أجنُّ منا!

شعرتُ بالضيق من كلام الجندي لأنه أيقظ في تلافيف ذاكرتي أبياتَ العباس بن الأحنف (ت 192 هـ/ 808م) عن زيارته لخراسان[2]؛ فكأن الجندي يرى أن عينَ الزمان (= سوء الحظ) قد أصابتْ من ينزل في مطار كابل والناس عنه راحلون. تجاوزتُ الجندي مُقلِّبا بصري في الحيطان الطويلة والجنود المنتشرين في كل ركن، متمتما بأبيات ابن الأحنف:

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا * ثُم القُفُولُ.. فقد جئنا خراسانا

2. تطلق خراسان تاريخيا –بحدودها الواسعة المسماة «خراسان العليا»– على معظم أفغانستان وتركمانستان وأوزبكستان وقرغيزستان، وجميع طاجيكستان، وشرقي إيران.

ما أقدر اللهَ أن يُدني على شَحَطٍ * سُكانَ دِجْلةَ من سكان جَيْحانا

عينُ الزمان أصابتنا، فلا نظرتْ! * وعُذبتْ بفنون الهَجْر ألوانا[3]

وصلنا البوابة الخارجية. رأيت جنديا أمريكيا مكتنزَ الجسم قصيرا ينوء كاهله بأسلحته يقف ممسكا دفترا رماديا متوسطا. كان ينظر إلى الدفتر ويحرك شفتيه. تساءلت ما الذي يفعله؟! هل يقرأ نصوصا في هذه الظروف يتسلى بها؟ وبعد دقائق دخل فوج من المدنيين فرأيته يمد يده ليحصيهم ويخط في الدفتر. كان يحصي أعداد الداخلين واحدا واحدا. فكل إنسان يتجاوز هذا الجندي داخلا المطار يشعر بالولادة من جديد.. فرِحا بالنجاة من مدينة تعيش يومها الثالث دون حكومة، وتدخل عَقْدها الخامس تحت الرصاص. يشعر العابر إلى داخل المطار بنشوة الهارب من طابور ربما أخذ من عمره أياما وسط أكوام البشر. لكن هذا العابر عند ذلك الجندي مجرد رقم ينضاف لأرقام في دفتر رمادي فحسب!

تجاوزنا الجندي فقال: احذروا... فالوضع في الخارج مرعب!

تجاوزناه قليلا فصاح جندي آخر:

هل أنتم متأكدون من رغبتكم في الخروج؟

لم نلتفت. مشينا إلى المخرج فلاحتْ الصورة الكاملة؛ آلاف الناس يتدافعون جهة البوابة التي نريد الخروج منها. آلاف الأرواح المرهقة والعيون المتوسلة والأيدي المرتعشة الممتدة بحثا عن طوق نجاة. شباب عاطلون فُتحت لهم فرصة لا تتكرر للهروب، وعيون تجسُّس للغزاة غادر أسيادُهم فجأة وتركوهم أيتاما في مدنٍ يديرها مسلحو طالبان. شبرا.. شبرا.. خرجنا؛ دفعا بين الأكوام البشرية المتعبة، وروائح مكانٍ تكدس فيه الآلاف أياما دون تنظيف.

---

3. أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، (بيروت: دار الفكر)، دون تاريخ، 8، 388.

التفت أحد الزملاء وقال: هذه الرائحة تذكرني بليالي منى ومزدلفة! حزّتْ في نفسي عبارة زميلي؛ وتمنيت لو أن اللحظة مناسبة لأحدثه بالتفصيل عن ليالي منىً قديما. فقد كانت ليالي منى في التاريخ الإسلامي ليالي إمتاع وجَمال وعطور، وكانت من أكثر الليالي التي يبكيها الشعراء لجمالها وروعة مظاهرها. والشعر العربي شاهد على ذلك خاصة شعر ابن أبي ربيعة. ومن الأمثلة الشعرية المعبرة عن رائحة المكان قول النميري الثقفي:

تضوَّع مسكا بطنُ نَعمان أنْ مشتْ * بيه زينبٌ في نسوةٍ عطِراتِ!
تهادَيْن ما بين المُحَصَّب من منىً * وأقبلن لا شُعثا ولا غبِراتِ!

لكني أعرضت عن كل ذلك. فقد كان أحد الزملاء مشغولا بمحاولة التواصل مع زميلنا حميد الله شاه المسؤول عن مكتب الجزيرة في كابل ليأتي لأخذنا، لكن ذلك بدا مستحيلا خلال الساعات الماضية؛ فإشارة الهاتف ضعيفة جدا بسبب التشويش المتعمد أمريكيا. وبعد جهود وتنسيقٍ رمينا حقائبنا الكثيرة عند البوابة ووقفنا ننتظر في الداخل.

شعرت بتعب من الوقوف فحاولتُ التراجع لأستند إلى الحائط، فصرخ جندي أمريكي مستلقٍ قرب قدمي تحت الحائط. أدرت عيني فلاحظت أن الجنود المنهكين موجودون في كل زاوية، نائمون في كل ركن من التعب الماحق. جالت في ذهني أسئلة دالة: هل تسلل شيء من الإرهاق إلى الإمبراطورية الأمريكية بعد طرحها لجنودها هنا؟ كيف لم تتسع عشرون عاما لترتيب رحيل منظم؟ هل فوجئت الولايات برحيلها الذي برمجته منذ سنوات؟ أم هي صلابة الأفغاني وقدرته الخارقة على تعكير مزاج الغازي دوما؟

ابتعدتُ عن الجندي المستلقي على التراب، الغارقِ في النوم والظلام، وأنا أفكر في قصة هذه الأرض مع الغزاة. لاحتْ لي جبال كابل متلألئة بعيدة شامخة مُظلَّلةً بالعناد السرمدي. هل جاء غازٍ هنا وغادر طيّبَ النفس قارّ البال؟ أم إن الأفغان ظلوا دوما أمة عصية على الترويض والاحتلال؛ «أمة حربية لا تدين لسلطة الأجنبي[4]» حسب تعبير جمال الدين الأفغاني (ت 1314هـ/ 1897م).

امتلأ ذهني بصور تاريخية مختلفة. صورة الجيش البريطاني الذي أُبيد هنا في يناير/ كانون الثاني عام 1842م، ولحظة خروج البريطانيين عام 1919، ولحظات انسحاب الدبابات السوفيتية في فبراير/ شباط عام 1989م.

انتبهتُ من التأمل التاريخي على شاب أفغاني يدخل إلى بوابة المطار. تجاوز «بوابة آبي» ووقف رافعا يديه. فتشه الجندي تفتيشا دقيقا ثم أشار له بالتقدم إلى داخل المطار حيث الطائرات الرابضة والأحلام المجنحة. كان وجه الفتى الأفغاني يطفح بِشرا. فهذه هي اللحظة التي تحلم بها كل روح من هذه الأرواح المنهكة الزاحفة على أرضية المطار. أشار الجندي للشاب طالبا منه الدخول لكنه لم يتحرك. بدأ يتحدث مع الجندي كأنه يحاول إقناعه بأمر. فتح الجندي ذراعيه ومد إحداهما جهة المطار والأخرى جهة الجموع ورفع صوته:

هما خياران: إذا كنت تريد الحرية فادخل، وإذا كنت تريد أفغانستان فعُدْ!

اقتربتُ منهما بحيث صرتُ أسمع حديثهما بيّناً. قال الشاب الأفغاني متوسلا:

اسمح لأسرتي! أتوسل إليك أن تسمح لأسرتي لتأتي معي!

4.جمال الدين الأفغاني، **تتمة البيان في تاريخ الأفغان**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة) 2014م، 15.

عاد الجندي مستخدما عبارة «الحرية» بالفارسية هذه المرة، رافعا صوته أكثر:

إن كنت تريد «آزادي» فتفضلْ إلى الداخل، وإلا فعد أدراجك إلى أفغانستان. لا أسمح لأسرتك بمرافقتك!

استمر النقاش والمحاولات حتى صرخ جندي أسمر جالسٌ على طرف الحائط:

اكْريسْ! اركلْ مؤخرتَه وأرجعه من حيث أتى!

دفع الجندي الشاب الأفغاني وهو يتوسل حتى أعاده جهة الجموع.

أتبعتُ الشابَ عيني حتى توارى وسط الطوابير متجاوزا سيارة جنود طالبان الذين يذودون الناس عن البوابة التي يقف خلفها الأمريكيون. بدتْ الصورة معبرة عن أفغانستان الجديدة؛ مسلحون من حركة طالبان واقفون أمام البوابة يساعدون في ضبط الناس وتنظيم دخولهم المطار بالتعاون مع الجنود الأمريكيين!

من كان يتخيل هذه الصورة؟ مسلح طالباني يضع يده على الزناد، وجندي أمريكي بقربه لا يطلق عليه النار! كانا يتحدثان وينسقان. هل هذه هي أفغانستان الجديدة؟ خطر لي أن الأمر ليس مستحيلا؛ فكل حركات التحرر من الجزائر إلى زيمبابوي تصافح فيها الغازي والمَغزُوّ لحظة رحيل المستعمر، فالحرب بين الاثنين إنما قامت لإخراج الغازي فحسب.

كان الطالبانيون شبابا من الناس، أفغاناً يلبسون كما يلبس الأفغان، لا تميزهم إلا بالرشاش؛ أما الملابس واللحية فمنظر أفغاني أصيل. وكان يمكن تمييز سلوكهم عن سلوك الجنود الأمريكيين بطريقة السيطرة على الحشود؛ فالجندي الأمريكي يصرخ ويحذّر ويدفع بيديه، أما الطالباني فيدفع بأعقاب البندقية ويرفعها مهددا بها كأنها عصا. لكنه أيضا يضحك ويمزح ويتحدث لغة الناس، أما الأمريكي فمكفهرٌ متترِّسٌ خلف بندقيته وخوفه وجهله

بطبيعة الأرض وأهلها. طال مكثنا عند البوابة ونحن لا ندري ما نفعل. شعر الجندي الذي نقف إلى جانبه بالتوتر من وقوفنا قربه فاقترح اقتراحا عمليا. أشار إلى حافلة عالقة وسط الجموع:

أرى أن تتفقوا مع صاحب تلك الحافلة وتُدخلوا حقائبكم فيها وتجلسوا هناك. وقد يساعدكم مسلحو طالبان على الخروج.

راقت لنا الفكرة. وبعد دقائق كنا جلوسا داخل الحافلة، غير أنها كانت كلما حاولت التحرك ضربها الناسُ بأكفهم تحذيرا. كنت جالسا قرب النافذة أتأمل الجموع. كانت قرب نافذتي امرأة تحمل رضيعا ومعها رجل. أخرجت هاتفي لأصور المشهد رغم الظلام فأشارت إلي ألا أصورهم. أغلقت هاتفي وأعدته لجيبي مما حرمني من أي صورة من تلك الصور التاريخية.

ظل السائق يحاول بين الفينة وأختها التحركَ فنسمعَ القرعَ على الحافلة من كل جانب. لا يوجد شبر يتحرك فيه. بعد نحو نصف ساعة حاول مسلحو طالبان فتح الطريق لنا. وبعد محاولات انفسح الطريق واستدارت الحافلة وبدأت تتحرك في الشارع المكتظ.

عبرنا سباحةً بين أمواج من الطوابير البشرية حتى خرجنا. وما كدنا نسلُّ أجسادنا من الجموع حتى بزغ الفجر، مع أنا وصلنا إلى المطار نحو الثامنة مساء بتوقيت كابل. دخلنا كابل وعباءةُ الليل تنحسر عنها انحسارا... كانحسار النظام المدعوم أمريكيا عشرين عاما. تلفتُ فرأيت شبان طالبان عند نقاط التفتيش. كانوا يؤشرون مسلّمين مبتمسين، بينما تلوح الأسلحة المصنعة أمريكيا على أكتافهم. التفت ورائي فلمحت من بعيد خوذاتِ الجنود الأمريكيين مشرئبةً من وراء جدران المطار، تداعبها أشعةُ الشمس المتسللة من خلف الجبال.

بدا الجنودُ الأمريكيون منشغلين بطي أمتعتهم استعدادا لرحيلٍ نهائي، بعد عشرين عاما من التخبط في الوحل الأفغاني. جاءوا قبل عشرين عاما بحجة إسقاط طالبان وها هم اليوم يسلمونها المفاتيح قبل الخروج. ألحّ عليّ سؤال واحد وأنا أبتعد عن المطار متوغلا في كابل التي بدأت تتململ مستيقظة. كيف بدأ كل هذا؟

الجنون الجماعي

«لن نتعثرَ، ولن نتعبَ، ولن نفشلَ.»

الرئيس الأمريكي جورج وولكر بوش

في صباح 18 من أغسطس/ آب 2021، استيقظتُ باكرا وتوجهت إلى مطار كابل. اقتربت بصعوبة من البوابة الرئيسية، حيث الجنود الأمريكيون ومسلحو طالبان ينسقون عمليات الإجلاء من البلاد. خضتُ طوابير لآلاف الشبان الأفغان الباحثين عن فرصة لرفع مستواهم الاقتصادي بالسفر المجاني إلى الولايات المتحدة. كنت ألبس السترةَ الصحافية الواقية من الرصاص، ومعي منتج ومصور وحارس وسائق؛ فكان من السهل تمييزي. سارع إلي كثير من الشبان حاملين أوراقا وملفات. يحمل بعضهم إفادات عمل مع منظمات دولية، ويحمل آخرون أوراقا لا يشك الناظر إليها في أنها مزورة. سألوني كيف يستطيعون العبور إلى الجنود الأمريكيين ليسمحوا لهم بركوب طائرة شحن إلى الولايات المتحدة أو أي دولة أوروبية؟

شرحت لهم أني صحفي لا غير؛ فلا أسطيع مساعدة أحد منهم، ولا علم لي بطبيعة الوثائق المسموح لصاحبها بالسفر. تجاوزتُ الجموع منطلقا إلى البوابة التي على يميني حيث الجنود الأمريكيون. اقتربت خطوات فلاحت سيارة طالبان متوقفة عند البوابة قرب الجنود الأمريكيين.

هل هذه هي أفغانستان القادمة؟ بلاد يقوم أمرها على تعاون أمني بين عدويْن سابقين، تعاون براغماتي مع احتقار وتوجس متبادلين. زواج متباغضين أجبرتهما السنينُ على تقاسم سقف واحد دون ذرة من حب، أو خفقة من قلب؟

أعدت النظر في الصورة الجاثمة أمامي؛ آلاف الجنود الأمريكيين الذين أرهقهم التعب وأضناهم العمل المتواصل والتنظيم المستحيل محاولين الخروج من أفغانستان بأقل خسائر. شبانٌ صغار، من ولايات أمريكية متفرقة نأتْ بهم الدار، وقذفهم الطموح الإمبراطوري إلى هذه البيئة الطاردة.

أين الدقة الأمريكية المشهورة والتنظيم والعمل المتقن المنظم المنجَز في إبَّانه؟ كيف تأخروا في كل شيء حتى وقع هذا؟ هؤلاء جنودهم معرضون للقتل، مرهقون مغبرّون عالقون بين أكوام القمامة لا يستطيعون حَراكا. ما الذي جعل أقوى قوة مادية وعسكرية على وجه الأرض ترحل هذا الرحيل المهين، هذا الرحيل المتعجل.. رحيلَ اللص الذي فاجأه ربُّ البيت فأعجله عن كل شيء!

استيقظتْ في ذهني صورة السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2001 يوم كنت وسط الغرب الأمريكي منصتا لخطاب بوش معلنا بدأ غزو أفغانستان. ما زلت أذكر إطلالاته في بزته السوداء وربطة عنقه العنابية وهو يتحدث بحسم، بينما تظهر السيارات عابرةً وراء النافذة التي يجلس قربها. تحدث بوش حديثا حاسما وأنصتتْ له الولايات المتحدة والعالمُ المرتجفُ من ورائها. أعلن بدأ قصف أفغانستان، ثم ختم مهددا: «لن نتردد، ولن نتعثر، ولن نتعب، ولن نفشل»

(We will not waver, we will not tire, we will not falter, and we will not fail).

وكل ما وعد بوش بأنه لن يكون قد كان. وقفتُ قرب الجنود الأمريكيين المترددين، الخائفين، المتوترين، الغائصين في القمامة؛ أستعيد ذكريات مريعة.

لقد كان خطاب بوش يومها خطابا عاطفيا مُلفَّفا بالغضب، لا كلاما

محكوما بالمنطق. لقد كان في قمة الجنون الجماعي الذي كنتُ شاهدا عليه صبيحة الثلاثاء 11 من سبتمبر/ أيلول 2001. لن يستطيع أحد فهمَ الجنون الجماعي الذي أصاب الولايات المتحدة بعد 11 من سبتمبر/ أيلول إلا إذا عاصر الضربة داخل العمق الأمريكي.

وإنْ أنْسَ لا أنْسَ لحظة وقوفي في طرف مقهى بولاية ميزوري والناس متحلقون على شاشة صغيرة تعرض صورة طائرة تدخل في برج التجارة العالمي. وقفتُ وسط النَّظارة أتأمل المشهد. كنت يومها في الرابعة والعشرين من العمر، أعيش هناك كادحا محاولا الدراسة وحفر موقع لي في الحياة في أرض الأحلام تلك.

انتفضت الولايات المتحدة من ساحلها الشرقي إلى ساحلها الغربي تحت هول الصدمة. هبطت عشرات آلاف الطائرات من الجو، وانقبضتْ الأيدي عن العمل، وكسد السوق. وبقي الأمريكيون مشتتين في ولايات ممنوعين من السفر، وليس لهم إلا التأمل والحنق والغضب من هذه اليد التي امتلكت الجرأة لتمتد إلى إمبراطوريتهم وتصفعها وهي واقفة على المسرح العالمي تستعرض مفاتنَها وجبروتَها.

فأيُّ منبعٍ ثقافي ذاك الذي يجعل شبانا آتين من بلدان متخلفة يدخلون أرض الأحلام لهذا الهدف؟ فالمتوقع من الشاب القادم من البلدان المتخلفة أن يدخل الولايات المتحدة مرفوعَ اليدين طالبا السلامة والاندماج فحسب. لكن هؤلاء دخلوها وكل منهم يخفي تحت ملابسه خنجرا منقوعًا في الاحتقار ليطعنها به! ضج الإعلام الأمريكي على مدار الساعة بالحديث عن الإسلام والمسلمين والقرآن وابن تيمية وابن عبد الوهاب وسيد قطب والإخوان المسلمين وتنظيم القاعدة وأسامة بن لادن وأفغانستان وطالبان.

دخلت كلماتٌ كثيرة القاموسَ الإنكليزي بسبب الضخ الإعلامي:

«المدرسة» و«طالبان» و«الجهاد» كانت من أشهر الضيوف على المعجم الإنكليزي. مر يوم واحد على الأحداث ثم وقفت الولايات المتحدة ثورا هائجا غاضبا يبحث عن عدو يهجم عليه. خزائن ملأى بالسلاح، ومئات آلاف الجنود المدججين جاهزون، وبارجات رائعةٌ جاثمة انتظارا للأوامر، وعدو قليل العدد، غامض الملامح. كانت الساحة ممهدة للاشتباك.

كان أول ما قامت به الولايات المتحدة هو التركيز على المسلمين الموجودين داخل أراضيها. وكانت ثم شروط لا تنطبق على أحد إلا أمسى هدفا للمخابرات والمضايقات، وكنت أحد هؤلاء. فقد كنت شابا أعزب أسكن شقة صغيرة وسط مدينة كنساس سيتي، ما بين ولاية كنساس وولاية ميزوري.

عدت يوما من العمل على تمام الثانية ظهرا. فتحتُ الباب فلمحت وُريْقة صغيرة مدسوسة على العتبة. رفعتها فرأيت عليها الـ«أف. بي. آي» (مكتب التحقيقات الفدرالي)، وقد كُتب عليها بخط واضح: «اتصل بي اليوم»! تأملت البطاقة فلمحت اسم المحقق أظنه ديفيد. أخذت الورقة ودخلت إلى الشقة متسائلا: ماذا يريد هؤلاء؟

كنت شابا متهورا يومها. حتى إن أحد الأصدقاء اتصل بي –من إحدى الولايات– شاكيا من كثرة دخول الـ«أف. بي. آي» عليه، فغبطته! قلت له: أنا أريدهم أن يستجوبوني، أريد أن أراهم واقعا بعد رؤيتهم أفلاما! كنت متهورا وأعلم أني لم أرتكب جرما، ولذا رأيت الاستجواب فرصة لرؤية الـ«أف. بي. آي» فحسب.

وضعت الهاتف ورفعت الورقة واتصلت.

آلو..

آلو

من المتصل؟

أنا أحمد.. تركتَ لي رسالة تحت عتبة بابي تطلب أن أكلمك.

آه، نعم نعم.

لماذا طلبتم أن أتصل بكم؟

أمر بسيط. فقط عندي أوراق أريد عرضها عليك.

لا بأس. نلتقي في مطعم مكدونالدز الأقرب لمنزلي على شارع برادوي.

تماما. متى؟

بعد نصف ساعة؟

ممتاز!

وانتهت المكالمة.

استحممت وغيرت ملابسي ونزلت. خرجت من مبنى «أمباسادور» ولففت يمينا مع شارع برادويْ حتى وصلت المطعم. أوقفت سيارتي ودخلت باحثا عمن أتوسم فيه أنه من الـ«أف. بي. آي».. تخيلته ذا بنيةٍ رياضية ونظارات شمسية سوداء.

جلست نحو خمس دقائق، فظهر رجل أحمر قوي البنية يلبس صدرية خضراء فوق قميص أحمر ونظارة شمسية. خطر لي أنه هو. تجاوزني ذاهبا للباب الآخر. فتحه ونظر ثم عاد. وقفتُ وتقدمت إليه فتردد قليلا ثم قال:

أحمد؟

نعم!

تفضل.

جلسنا حول طاولة في الركن الشمالي من المطعم. صعّد نظره معي وقال بحماس مفتعل:

الجو لطيف جدا اليوم

نعم.. هو كذلك.

بدأ يسألني بعض الأسئلة التي أراد أن يُفهمني أنها عابرة وليست مهمة. لكني كنت منتبها جدا وعارفا أنه سيعيدها لاحقا.

متى وصلت لهذه البلاد؟ ماذا تفعل هنا؟ لمَ جئت إلى هذه الولاية بالذات؟

ومد يده:

هل عندك هوية حتى أكتب معلوماتك؟

أدخلت يدي في جيبي وناولته هويتي. أخرج دفترا أصفر مخططا وبدأ يكتب. مرت دقيقة دون أن يسألني فقلت:

لمَ لا نبدأ؟

تحرك في مقعده:

ما زلت أنتظر زملاء لي.

قالها ثم بدأ يلقي بعض الأسئلة المشتتة عن السكن وطبيعته، وأصدقائي، ولماذا جئت إلى الولايات المتحدة؟ بعد نحو عشر دقائق رفع وجهه جهة الباب فظهر رجل وامرأة في بدلات رسمية سُود. اقتربا وسلما وجلسا معنا. كان الرجل عجوزا حليقا، أبيضَ الشعر حاد النظرات معروق الوجه. أما

المرأة فكانت فتاة رشيقة في مقتبل العمر. جلستْ الفتاة في وجهي وجلس العجوز عن يميني بينما ظل ديفيد عن يساري.

بدأ التحقيق بالصيغة التقليدية بطلب معلومات لا حصر لها عني، ثم أخرج ديفيد ورقة من ظرف عنده وسألني وكأنه يعطي كل حرف حقه:

ما هذه الرسالة التي أرسلت من البريد الأسبوعَ الماضي؟

كانت الرسالة ألفيْ دولار (بصيغة «مَاني أُورْدرْ»/ حوالة مالية) أرسلتها إلى أحد الموريتانيين في ولاية كنتاكي.

هذه رسالة لأحد الموريتانيين ليحولها إلى بلادي.

لماذا؟

أرسلتها مساعدة لأهلي في بعض شؤونهم كما أفعل شهريا غالبا.

تحركت الفتاة ووضعت يديها على الطاولة ونظرت إليهما أولا ثم حدقتْ فيَّ:

لِمَ لم ترسل المال بحوالة بنكية إلى حساب أهلك؟

شعرتُ بالاستفزاز:

هل تظنين أن لدى أمي حسابا بنكيا؟ إن الحياة هناك ليست كالحياة في كنساس سيتي. نحن نرسل المال بهذه الصيغة، ولا صيغة أخرى غير هذه.

كانت الولايات المتحدة يومها تشك في كل شيء، وتحاول رصد حركة كل دولار ينفقه مسلم؛ محاولة معرفةَ من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ ضرب الرجل المسنُّ الطاولة مقطِّبا جبينه:

يا رجل! أتظن أنك تخدعنا؟ هل تتحدث مع أطفال؟ قل لنا لِمَ أرسلتَ

المال؟ ومن هذا الرجل الذي أرسلته إليه؟

شعرت بضيق وتوتر من رد فعل العجوز، ثم قلت:

الأمر كما قلت لكم. أنتم تحتاجون إلى فهم المجتمعات حتى تفهموا كيف تعمل. مشكلتكم أنكم تقيسون كل شيء على ما تعرفونه فقط.

كانت الفتاة تنظر إلي وتضيق حدقة عينيها كلما تحدثتُ. تضيقها ثم تفتحها بعد ذلك. وما إن أنهيت حديثي حتى مالت على الطاولة قائلة:

أحمد، قل لنا لمَ أرسلت المال؟ وماذا يفعل ذلك الرجل -الذي أرسلته إليه- بالأموال التي تأتيه؟

ليس عندي إلا ما قلته.. وهذه هي الحقيقة.

كحّ ديفيد كحة خفيفة ورفع يده إلى ذقنه:

هل تذهب إلى المسجد؟

نعم، لا أضيع فرصةَ الذهاب إليه كلما واتتني.

هل سمعت أحدا في المسجد يتحدث عن هجوم 11 من سبتمبر قبل وقوعه؟

شعرت بسخافة السؤال. كأنهم يتخيلون أن المسلمين في الدنيا كلها اتفقوا على هذ الفعل، ويمكن أن يدور بينهم أمر يتحدثون فيه دون أن يشاركوا فيه بقية العالم. كأن المليار ونصف المليار مسلم جماعة سرية واحدة مغلقة محكمة التنظيم، تتفق على أمر ولا يخرج عنها. قلت بتضايق:

طبعا لم أسمع أي حديث قط عن الأحداث قبل وقوعها.

قال ديفيد بصوته الخشن:

ما شعورك وموقفك من الضربات؟

تراجعت في الكرسي وقلت بنبرة تأكيدية:

حزين جدا للحادثة. وحزني وتضايقي منها أكثر من حزنكم وتضايقكم؛ فأنتم منزعجون فقط لأن أبرياء قتلوا، أما أنا فحزين للأبرياء ولأن الأمر وقع باسم ديني، قام به رجال يرفعون اسم الإسلام الذي أحبه، وعليه فالمسألة مضاعفة علي بعكس حالتكم!

أحسست بالارتياح لجوابي؛ فالعجوز هشّ لإجابتي، والفتاة استرخت في مقعدها باسمة، كأنه أول جواب لي يعجبهم. زمّت الفتاة شفتيها وضيقت حدقتيها:

هل سافرت خلال الفترة الماضية خارج البلاد؟

كلا، لكني أنوي السفر لموطني بعد شهر.

لماذا؟

كنت قد برمجت سفري وحجزت التذكرة قبل شهر.

رمقتْ العجوزَ عن يمينها فبادلها النظرات.

مر وقتٌ وهم يتناوشوني بالأسئلة. رفعتُ بصري جهة الساعة المعلقة في الزاوية فإذا بها تزحف جهةَ الثالثة والنصف. لقد مرت ساعة كاملة وأنا أُستجوب. بعد دقائق جمع ديفيد أوراقه وشكرني، ووقف العجوز ذو البدلة السوداء، ومد لي بطاقته وقال خلّ هذه معك. وإن أوقفك أحد يمكنك أن تعطيه إياها. وإذا سمعتَ أخبارا وأردتَ إيصالها لنا فسنكون من الشاكرين.

خرج العجوز وفتاتُه من الباب الشمالي للمطعم، وبُعيد خروجهما التفت العجوز هازًّا رأسه، ثم تواريا بينما لاح سوادهما من وراء الزجاج.

مد ديفيد يده وتصافحنا وافترقنا. خرجتُ إلى الموقف الواقع جنوب المطعم ودخلت سيارتي ورميت جسدي على المقعد الأمامي، وأنا أنظر ديفيد من المرآة العاكسة يتقدم جهة سيارة سوداء رياضية وهو يعدل نظارته الشمسية. استرخيت في المقعد مفكرا في أمر واحد: هل انتهى التحقيق عند هذا أم سيتابعونني؟

أدرت السيارة فصدحت إذاعة «أم. بي. آر» فازددت توترا. كانت تصدح بالأخبار، والحديث عن خطاب متوقع للرئيس بوش مع أخبار متفرقة عن هجمات متقطعة على مسلمة محجبة، أو مسلم ملتح.

في مساء ذلك اليوم اتصل بي أحد الأصدقاء الموريتانيين من ولاية كنتاكي قائلا بخوف:

لقد جاؤونا! جاءنا الـ«أف. بي. آي»، كنا في بيت أحد الشباب فدخلوا علينا. كنا سبعة شبان في غرفة واحدة. دخلوا وقالوا: هل انتهى الاجتماع وما موضوعه؟ قلنا لهم إننا لسنا في اجتماع. فقالوا كيف؟ كيف يجتمع سبعة شبان إلا على اجتماع؟ قلنا لهم إننا مجتمعون لشرب الشاي الأخضر!

وانقطع الاتصال وأنا أفكر في صعوبة المهمة التي تواجه الولايات المتحدة. إمبراطورية جريحة تجد نفسها فجأة تتلمس طريقها في كل ركن، وتغرس ظفرها تحت كل جلد، وتدس أنفها في كل بيئة بتوجس مَرَضي. وما هي بجاهزة لفهم هذه المجتمعات ولا تعقيداتها ولا ثقافتها.

بعد ذلك بأقل من أربعين يوما، وفي مساء 31 من أكتوبر/ تشرين الأول 2001م دخلت مطار سنسناتي -بولاية أوهايو- ذاهبا إلى موريتانيا. جئت إلى المطار قبل موعد السفر بأربع ساعات احتياطا؛ فوقع استنفار عندما رأوني. قاموا بعزل شنطتي وفتشوها تفتيشا دقيقا. ثم ذهبت إلى قاعة المغادرة

وجلست. وقبيل موعد السفر بنحو ساعتين سمعت النداء في جنبات المطار:

المسافر أحمد دَاينْ.. إلى البوابة لطفا! المسافر أحمد داين إلى البوابة لطفا.

تقدمت متهيبا حاملا شنطة صغيرة على منكبي. خطوات ووقفت أمام البوابة. وجدت خمسة رجال وسيدة في انتظاري. ابتسم أحدهم:

تفضل معنا!

خطونا خطوات ثم انفتح باب سفلي ودخلنا. ما كاد الباب ينغلق حتى تغيرت النبرة واستحال الهدوء صخبا:

انظر في عيني! إلى أين تذهب؟ ولم تسافر؟ ماذا وراءك؟ لم لا تحمل ملابس كافية في شنطتك؟

كانت الأسئلة كثيرة ومتعددة ومن الجميع. كأنهم يريدون إرباكي. ثم لمحتُ شنطتي -التي فُتشتْ من قبلُ تفتيشا دقيقا- يعكف عليها آخرون. أفقتُ من الأسئلة المتتالية وقلت:

هذه بطاقة صاحبكم.. سبق أن حققتم معي وأعطيتموني هذه الورقة. يمكن أن تتصلوا بهم لتتأكدوا من أنهم سألوا كل الأسئلة. ليس عندي ما يفيدكم.

اختفطت السيدة الورقة من يدي ووضعت الرقمَ وابتعدت متحدثة.

كنت قلقا من أن الرحلة ستفوتني. لكن كبيرهم عاد فأخذوني وأدخلوني إلى الطائرة، وطلبوا مني ألا أتحرك بداخلها حتى لا أخيف الركاب.

كنت عطشان جدا. التفت إلى المضيفة التي تجهز الطائرة:

لطفا، أعطيني ماء!

رمقتني وقالت:

لا، لن أعطيك ماء.

تكوّمتُ داخل مقعدي متحسرا حزينا مفكرا في طبيعة الجنون الجماعي الذي مس هذه الأمة العظيمة! ما هذا الداء الذي أصاب هذه الأمة التي ما كانت هكذا قبل خمسين يوما؟

أفقت من ذكريات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وأنا ما زلت متسمّرا أمام بوابات مطار كابل. فكرت في أن معظم هؤلاء الشبان الأمريكيين المارين أمامي لم يكونوا قد وُلودا يومها، أو كانوا رُضّعا حينها. فما الذي جنت الولايات المتحدة من غزوها لهذه البلاد؟ وما الذي يجعل هذه الديار قبلةً للغزاة في كل عصر؟

الفصل الأول: الأفغان زمانا ومكانا

لعنة الحسناء

«أول قاعدة في السياسة: لا تغزُ أفغانستان أبدا»!

رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان ناصحا خليفته أليك دوغلاس هيوم

تتمتع أفغانستان بتاريخ حضاري مهيب، وموقعٍ جغرافي غدتْ ميزتُه سببَ تعاستها المعاصرة. فهي بذلك تُشبه الحسناء حين يمسي جمالُها نقمةً عليها. إذ تقع أفغانستان تاريخيا على مفترق طرق القوافل السائرة بالأفكار والأطماع والبضائع إلى زوايا الأرض. ولذا نبّه المؤرخ الإنكليزي آرنولد توينبي (ت 1975م) إلى أن مكانةَ أفغانستان تاريخيا متكئةٌ على كونها بؤرةَ الربط بين حضارات الهند، وشرق آسيا ووسطها، والشرق الأوسط، وأوروبا. ثم لخص فكرته طالباً منك –لكي تفهمها– أن «تضعَ نفسَك في العراق –لا في أوروبا– وستلاحظ جلياً أن نصف طرق العالم القديم تقود إلى حلب، ونصفها الثاني يؤدي إلى باغرام»[5]. وهذا ما يفسر محورية أفغانستان تاريخيا في بناء الإمبراطوريات وإسقاطها، وأسباب التنافس عليها. كما يسوّغ الازدهارَ الثقافيَ والعلمي الذي شهدته عبر العصور.

إن الموقع الجغرافي لأفغانستان يشرح محوريتها السياسية والاستراتيجية؛ فهي أقصى نقطة شرقية من هضبة إيران، كما تتربع قرب جبال الهملايا، مما

5.Toynbee, Arnold J. *Between Oxus and Jumna*. (London: Oxford University Press, 1961),1

يجعلها بؤرة التوتر والعبور بين إمبراطوريات الهند والصين ووسط آسيا وروسيا والشرق الأوسط. هذه الخاصية جعلت معظم الغزاة الأقوياء في التاريخ يمرون من أفغانستان، بدءا بالإسكندر الأكبر (ت 323ق.م)، ومرورا بجنكيز خان (ت 624هـ/ 1227م)، وانتهاء بجورج بوش الابن.

لقد انجذب الأقوياءُ عبر التاريخ إلى أرض أفغانستان الوعرة؛ فدخلها الإسكندر المقدوني وخاض المعارك بين جبالها الشاهقة حتى انهزم جنوده هزيمة مدوية[6]. فغيّر بعد ذلك طريقته مع سكان البلاد وتزوج أميرة من أميرات بلخ[7] محاولا بذلك التقرب من السكان. ثم ترك البلاد بعد ذلك طالبا من جنوده عدم ذكر الهزيمة التي تعرض لها بين جبال الهندوكوش[8] (كان يُطلق على جبال الهندوكوش باروبانسادا وتعني الجبل الذي يعجز النسر عن التحليق فوقه)[9]. ولعل أوامرَه تلك أولُ رقابة إعلامية تصلنا عن ضيق الإمبراطوريات بنشر أخبار مصارع جنودها في أفغانستان.

لقد حاول الأكاسرة الفُرس جعل أفغانستان جزءا من إمبراطوريتهم، وخلفيةً شرقية وادعةً لمملكتهم. وقد نجحوا في ذلك مرات وفشلوا في الأغلب. فكثير من الهزائم المنكرة التي سُجلت للأكاسرة كانت غالبا داخل أفغانستان، والحالات التي قُتل فيها الأكاسرة أو أُسروا وقعت غالبا

6. Stephen Tanner, *Afghanistan: AMilitary History From Alexander The Great to The Fall Of The Taliban*,(Masachusetus: Da Capo Press, 2002), 60-71.

7. Stephen Tanner, *Afghanistan: AMilitary History From Alexander The Great to The Fall Of The Taliban*,(Masachusetus: Da Capo Press), 2002, 49.

8. يزعم ابنُ بطوطة أن معنى جبال الهندوكوش: «قاتلة الهنود؛ لأنّ العبيد والجواري الذين يُؤتي بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج.» انظر: محمد بن عبد الله ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (بيروت: دار الشرق العربي)، دون تاريخ، 302/ 1.

9. Toynbee, *Between Oxus and Jumna*, 51.

بين جبال ووِهاد تلك الديار. كما وطئتها أقدام جينكيز خان وتيمورلنك (ت 807هـ/ 1405م)، وخطط نابليون (ت 1821م) لغزوها.

وترتبط قصة أفغانستان مع الغزاة دوما ببُعديْن: أولهما مكانتها الاستراتيجية باعتبارها ممرا بين صُناع الحضارات القديمة من هنود في الجنوب، وصينيين في الشرق، وفرس وعرب في الغرب. وثانيهما بيئتُها الجغرافية والعرقية التي تجعل البقاء فيها أمرا في غاية الصعوبة.

غير أن قدوم الغزاة إلى الأرض الأفغانية يقع دوما في مأزق بسبب التركيبة الجغرافية والثقافية للبلاد. فهي أرض ذات جبال عالية، ووديان عميقة، وشتاء قارس، وصيف حار. وتشقها سلسلة جبال الهندوكوش البالغة ستمائة كم طولا، وتسعمائة كم عرضا. بينما يبلغ ارتفاعها ما بين ستة وسبعة آلاف متر[10]. وقد شكلت هذه البيئة حاضنةً طبيعية للاختلاف العرقي واللغوي مما عمّق المأزق الذي يواجهه أي غازٍ. فلم تكن السيطرة على أفغانستان العقبة الكبرى أمام غزاتها، بل بقاؤهم فيها بعد الدخول. فالأهواء المتشاكسة، والجغرافيا الحاضنة، عوامل تجعل بقاء الغازي أمرا صعبا. لكنْ ثمة استثناءٌ واحد يمكن التوقّف عنده.

---

10. علي رضا آبادي، **أفغانستان في التاريخ المعاصر**، ترجمة: أحمد النادي، (القاهرة: المشروع القومي للترجمة)،2000، 27.

إن الإمبراطورية الوحيدة التي دخلت أفغانستان[11] ولم تخرج منها يوما هي الإمبراطورية الإسلامية؛ فمنذ عبر أصحابُ محمد (صلى الله عليه وسلم) على خيولهم السريعة مدينةَ هراة في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان (ت 35هـ/ 656م)، وتوغلوا في أفغانستان بقيادة الشاب القرشي ذي الخمسة والعشرين عاما عبد الله بن عامر بن كُرَيز (ت 58هـ/ 679م)؛ لم يخرج الإسلام ولا الأمراء المسلمون قطُّ من تلك البلاد.

ولعل الطبيعة الديمغرافية المتشاكسة كانت العامل المساعدَ لثبات الإسلام وتشبث الأفغان به. فقد شكَّل عاملَ اللحمة المجمعَ عليه في أفغانستان المترعة بالمتناقضات الثقافية والجغرافية المرهِقة. وغدا الدينُ الإسلامي مع الزمن ضرورةً موحّدةً يرجع إليها الجميع؛ سواء أكانوا من المتوارين داخل وديانهم العميقة، أم من المتمترسين وراء جبالهم الشاهقة، أو المنكشفين وسط السهول الخصبة. وهكذا ظل الإسلام -كما يقول المندوب الأمريكي السابق إلى أفغانستان «القاسمَ المشتركَ الوحيدَ في المجتمع الأفغاني».[12]

لقد لاحظ المؤرخون المسلمون باكرا العلاقة الاستثنائية بين الخراسانيين والإسلام؛ إذْ يقدم ابن الفقيه الهمداني (ت: 340هـ/ 949م) مقارنةً طريفة

11. ورد أول ذكر للفظة «أفغاني» في المصادر العربية في كتاب «النُّتَف في الفتاوى» لأبي الحسن علي بن الحسين السُّغْدي الحنفي المتوفى 461هـ/ 1070م. ثم تردد ذكر «الأفغان» بعد ذلك عند ابن بطوطة ومن بعده المقريزي.

12. زالماي خليل زاد، السفير: **من كابل إلى البيت الأبيض: رحلتي عبر عالم مضطرب**، ترجمة: بسام شيحا، وسعيد الحسنية، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون)، 24.

بين الخراسانيين والإيرانيين مُرجعا ذلك إلى لحظة الاتصال الأولى بالإسلام، فيعرض صورتين متناقضتين لعلاقة الخراسانيين الشرقيين والفرس الإيرانيين بالإسلام فيقول عن أهل خراسان:

«ثم أتى الله بالإسلام فكانوا فيه أحسنَ الأمم رغبةً، وأشدَّهم إليه مسارعة. منّاً من الله عليهم، وتفضلا وإحسانا منه عليهم. فأسلموا طوعا، ودخلوا فيه أفواجا، وصالحوا عن بلادهم صلحاً. فخفَّ خراجُهم وقلّت نوائبُهم، ولم يَجْرِ عليهم سِباءٌ، ولم يسقط فيما بينهم وبين المسلمين دم»[13].

ويكرر ابن الفقيه الدخول الطوعي لهم في الدين فيقول: «وأهل خراسان دخلوا في الإسلام رغبة وطوعا، ثم هم أحسن الناس تقيةً وأشدهم بالدين تمسكا»[14]. وظلوا مع عميق تدينهم أولي قوة وبأس في الدين حتى شاع وصفهم بأنهم «فرسان الهيجاء وأعنة الرجاء»[15].

ويطنب بعد ذلك في التدليل على أن غالبية الميمزين علما وثقافة وسياسة في ظل الإسلام كانوا من أهل خراسان لملامسته شغافَ قلوبهم، فهم الذين أقاموا الدولة العباسية وكانوا عمودها الفكري والعسكري والسياسي والإداري.

ثم يقارن ابن الفقيه بينهم وبين جيرانهم غربا: «إن أول أمرهم في الإسلام على ما قد علمتَ من شدة العداوة للمسلمين، ومحاربتهم إياهم، حتى قُهروا وهُزموا وطُلبوا ومُزقوا (..)؛ فكانوا كنارٍ خمدتْ، وكرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فتبدّد جمعُهم، ومُزّقوا كل ممزّق، فلم يبق

13. محمد بن إسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه، **البلدان**، تحقيق: يوسف الهادي، (بيروت: عالم الكتب، 1996)، 607.

14. ابن الفقيه، **البلدان**، 607.

15. ابن الفقيه، **البلدان**، 275.

في الإسلام منهم نبيهٌ يذكر ولا شريف يشهر».[16]

ونص ابن الفقيه هذا نصٌّ متحامل بعيد عن العلمية، لكنه معبر عن نمط النظرة إلى الخراسانيين والإيرانيين في العقلية الجمعية لكثير من نُخَب المسلمين منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ودالّ كذلك في تفسير العلاقة الاستثنائية للأفغان بالإسلام، وتحوله إلى هوية محلية ملتحمة بالحمض النووي الثقافي للإنسان الأفغاني، عكس غيره من الإمبراطوريات والأديان التي مرت من هناك.

16. ابن الفقيه، **البلدان**، 607.

كثيرة هي الغزوات التي نُظمت لاحتلال أفغانستان تاريخيا، لكن معظمها لم يكن بقصد السيطرة على أرض أفغانستان ذاتها، بل كان للتحكم في المناطق الأكثر ثراء كالهند جنوبا، أو وسط آسيا شمالا، أو للسيطرة على طرق التجارة التي كانت أفغانستان تتربع على ملتقياتها في العالم القديم. والأهم من ذلك كله التحكم في طرق عبور الجيوش بين جبال الهندوكوش باعتبارها الممر الوحيد بين جنوبي آسيا وشماليها. فهذا الموقع جعل أي قوة في الهند مثلا ترى السيطرةَ على أفغانستان ترسَها الأساسي للوقاية من التهديد الأجنبي. ولذا يشهد التاريخُ أن جبال الهندوكوش ظلت –طيلة الألفي عام الماضييْن– جزءا من إمبراطوريات متصارعة، أو مكانَ نزاعٍ دائم بين دول محلية قوية بسبب محوريتها الجغرافية والاستراتيجية[17].

غير أن الموقع الاستراتيجي لأفغانستان تراجع خلال العصر الحديث في جانبه التجاري؛ فلم تعد البلاد نقطةَ ربط للتجارة الدولية بسبب عوامل متراكمة. فقد جزمتْ الباحثة الأمريكية ريبيا تالي ستيوارت بأن ثمة شخصيتين أزاحتا أفغانستان عن مكانتها العالمية هما جينكيز خان، وكريستوفر كولومبس (ت 1506م)[18]. إذ أخرجها الأولُ من التاريخ بقتل أهلها وإفناء محاسنها الحضارية، وتدمير نظام الريّ فيها، بحيث لم يبق فيها أحد يعلم الصناعةَ للأجيال اللاحقة. وأضرّ بها كولومبس باكتشافه لطرق تجارية جديدة؛ «فقد أبحر كولومبس غربا باحثا عن طريق بديل لأفغانستان

17. Thomas Barfield, *Afghanistan: A Cultural And Political History*, (Prinston University Press), 2010, 66.

18. Rhea Talley Stewart, *Fire In Afghanistan 1914-1929: Fait, Hope, And the British Empire*, (New York: Double Day And Company), 1973, 583-584.

باعتبارها الممر الوحيد بين آسيا وأوروبا. ومنذ تلك اللحظة قلّتْ القوافلُ المارةُ بين جبال الهندوكوش. فأفغانستان محورية في عالم مسطح، لا في عالم دائري».[19]

ومع تراجع مكانتها –مقارنة بالماضي البعيد– فإنها ما زالت مهمة سياسيا لكونها منطقة عازلة بين هضبات إيران، وسهوب وسط آسيا، وشبه القارة الهندية. وهذا ما يجعلها محورية للروس والباكستانيين والهنود والإيرانيين[20]، وفي أي معادلة جيوسياسية دولية. ثم هي اليومَ ربما تعود للواجهة الاستراتيجية بسبب مجاورتها للصين المتحفزة للتأثير العالمي بعد نهوضها الاقتصادي والعسكري خلال العقود الأخيرة.

ولعل الصراع المرير الذي خاضته روسيا وبريطانيا –طيلة القرن التاسع عشر– على أفغانستان يلخص مكانتها الاستراتيجية المعاصرة باعتبارها أرضا محورية في صراع القُوى الكبرى. فالروس اهتموا بها لأنها طريقهم إلى الهند التي كانت تحت الاحتلال البريطاني، وإلى التمركز وسط المياه الدافئة في المحيط الهندي وبحر العرب. والبريطانيون غزوها لمنع الروس من الاقتراب من مناطق نفوذهم جنوبا، ولإيجاد ممر إلى وسط آسيا، مما ولّد المصطلح المشهور بـ«اللعبة الكبرى» (The great Game). وهو المصطلح الذي سكّه ضابطٌ بريطاني اعتقله أميرٌ أفغاني بعدُ ووضعه في بئر مليء بالقوارض، ثم أخرج ما تبقى من جثته وضرب عنقه[21]. ولعل قصة وضع هذا المصطلح ومعناه ومصير واضعه يُلخصان مكانة أفغانستان، وعلاقتها بالمستعمرين كذلك.

19. ibid

20. Tim Marshal, *The Prisoners Of Geography*, (New York: Scribner), 2015, 96.

21. David Fromkin, *A Peace To End All Peace: The Fall Of The Ottman Empire And The Creation of The Modern Midlleast*, (New York: Henry Holet and Company),1989, 27.

لقد لعبت بريطانيا وروسيا لعبةَ الأمم على الأرض الأفغانية بسبب موقعها الاستثنائي العازل. وخالتْ كلٌّ منهما أن السيطرة على أفغانستان تقود للسيطرة على مفاصل محورية في السياسة الدولية يومها. حتى إن المندوب الإنكليزي إلى الهند آنذاك جورج كورزون (ت 1925م) جزم بأن «اللعبةَ التي تدور على هذه الرقعة هي لعبة السيطرة على العالم».[22]

وقد استمرت تلك اللعبة على الأرض الأفغانية طيلة القرن التاسع عشر حتى برهن الأفغانُ للمستعمرين البريطانيين أن البقاء بأرضهم مكلف جدا، بعد المقاومة الشرسة التي لم تتوقف (وسنشير لها بالتفصيل لاحقا)، فانسحب البريطانيون أخيرا عام 1919م، مما قاد لاستقلال أفغانستان الحديثة بحدودها المعروفة اليوم.

غير أن المكانة الاستراتيجية لأفغانستان لم تتركها تنأى عن الصراع طويلا؛ ففي نهايات ديسمبر/ كانون الأول 1979 عبر عشراتُ آلافِ الجنود السوفييت إلى أفغانستان دعما للنظام الشيوعي في كابل. وكان في أذهان الروس أن أفغانستان أصبحت منطقة خطرةً فكريا على الدول الإسلامية الخاضعة لموسكو. فجاءت للتعامل معها باعتبارها منطقةً عازلة، تُحجّم من خلالها «التطرف الإسلامي» وأحلامَ الاستقلال داخل الجمهوريات الإسلامية السوفيتية. كما أرادتها منطقة عازلة بينها وبين النفوذ الأمريكي المخيم جنوبا.

توغل الجيش الأحمر في أفغانستان متسلحا بسمعة الجيش الذي لا يهزم؛ فمنذ 1942 لم يخسر الروس أيَّ معركة، لكن السنوات العشر التي قضوها بين جبال الهندوكوش كانت كفيلة بتلطيخ تلك الصورة، وإثباتِ استعصاء

---

22. George N. Curzon, *Persia and The Persian Question*, (London: Longman, Green, And Co.), 1892, 3-4.

أفغانستان مرة أخرى. فقد انهزم الجيش الأحمر «هزيمة مذلة على أيدي مجموعة من المزارعين الأميين الأفغان»؛ كما يقول الضابط الأمريكي بروس ريديل[23]. وهكذا عندما خرج من أفغانستان الضابط الروسي الأخير بروريس غروموف صبيحة 15 من فبراير/ شباط 1989 أضافت إلى سجلها قصة جديدة من قصص طرد المحتلين.

كانت الولايات المتحدة حاضرةً في أسباب هزيمة الروس تلك؛ إذ كانت تراقب الوضع المتكشفَ بين جبال ووهاد الأفغان، لكنها لم تحترق به. فقد شاركت في الحرب دون أن يضع جنديٌّ أو موظف استخباراتي أمريكي واحد قدمَه على أرض أفغانستان[24]. وخرجت من تلك الحرب منتصرة على الروس دون أن يُجرح لها جندي واحد أو يقتل لها مواطن. ولعل هذه التجربة كانت حاضرة في أذهان الساسة الأمريكيين يوم قرروا -بعد اثني عشر عاما من انسحاب الروس- أن يدخلوا المستنقعَ الأفغاني.

ففي صبيحة السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2001 كانت قاعدةُ باغرام – تلك البقعة التي تحدث توينبي عن مكانتها استراتيجياً- على موعد مع غزاة جُدد. إذ عبرتْ المهاجماتُ الأمريكية فوقَ جبال الهندوكوش، وانطلقت خمسون صاروخا من نوع توماهوك لتدكّ مدنا أفغانية ذات تاريخ مديد مع مطامع الإمبراطوريات ومطامحها.

23. Bruce Riedel, *What We Won: America's Secret War in Afghanistan 1979-1989*, (Masachusets: Brooking Institution, 2014) 40.

24. في النجاح الأميكري الباهر دون خسائر انظر كتاب بروس ريدل أعلاه.

ظلال الماضي

«والدنيا خراسانُ»

الشاعر عصابة الجرجاني

تقف خريطةُ أفغانستان اليوم على أربع مدن تشكل مربعا مثيرا للعين والذاكرة؛ فتقع هَراةُ غربا، وبلخ (مزار الشريف) شمالا، وقندهار جنوبا، وكابل شرقا. وقد لعبت هذه المدن أدوارا محورية في التاريخ البشري، وظلت -منذ القدم- مدنا قائمة ومن أكثر حواضر العالم ازدهارا اقتصاديا وثقافيا.

غير أن تقارير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة[25] اليومَ تقدم أرقاما صادمة عن الحياة الاقتصادية والثقافية في أفغانستان، وتحديدا في تلك المدن العتيقة. فقد احتلت البلاد عام 2020 المرتبة رقم 169 من أصل 189 بلدا في مؤشر التنمية البشرية؛ إذْ لا يتجاوز دخل الفرد السنوي فيها 2229 دولارا، ولا يوجد لكل عشرة آلاف أفغانيٍ غير طبيب واحد. أما نسبة القادرين على القراءة والكتابة فقد ارتفعت عام 2020 لتصل ٪43.[26]

ولعل الحروب وتعاقب الغزاة على البلاد طيلة القرون الماضية كان السبب في إيصال البلاد إلى هذه الهوة السحيقة مقارنة مع ماضيها المجيد.

هَراة

تقع هراة غربا على الحدود مع إيران. وقد وصفها الرحالة الإغريقي

25. http://hdr.undp.org/en/content/latest-human-development-index-ranking retrieved on 28th September, 2021, 10:00 AM GMT.

26. https://uil.unesco.org/interview-literacy-rate-afghanistan-increased-43-cent

هيرودوت بأنها سلة وسط آسيا[27]، ونقل منها صورا دالة على طيب عيش أهلها ورواج أسواقها قبل أكثر من ألفي عام. وظلت هذه الصورة حاضرة في معظم كتابات الرحالة الذين رأوها بعدُ، وتحدثوا عن طبائع بلادها وشيم سكانها.

فهذا الرحالة ياقوت الحموي (ت 626 هـ/ 1229)يقول عنها: «لم أرَ بخراسان -عند كوني بها في سنة 607 (1210م)- مدينةً أجلَّ ولا أعظمَ ولا أفخمَ ولا أحسنَ ولا أكثر أهلا منها...، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيراتٌ كثيرة»[28]. فهو يلاحظ وفرة السكان - ما يدل على رخاء العيش- والحالة الحضارية التي وصلت إليها. ثم يتحدث عن الجانب الثقافي فيصفها بأنها «محشوةٌ بالعلماء، ومملوءةٌ بأهل الفضل والثراء». ثم ينبه إلى اللحظة التاريخية الأفظع في تاريخ هراة وأفغانستان عموما، وهي اللحظة المغولية التي رآها وهي تمحو المحاسن الحضارية الاستثنائية لمدن خراسان:

«وقد أصابتها عينُ الزمان ونكبتْها طوارقُ الحدثان، وجاءها الكفارُ من التتر فخربوها حتى أدخلوها في خبر كان». ولم يجد ياقوت -وهو المؤرخ المدقق- ما يعلق به على انمحاء تلك المدينة التي رآها إلا أن يقول: «فإنا لله وإنا إليه راجعون»! [29]

تميزت هراة بالازدهار الثقافي والعلمي طيلة تاريخها وخاصة قبل الغزو المغولي؛ حتى إن الجغرافي أبا إسحاق الإصطخري (ت: نحو 346هـ/ 951م) يقارنها بالمدن العامرة بالثقافة يومها، ثم يجزم بأنْ «ليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجدٌ أعمرُ بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ثمّ مسجد بلخ»[30]. وعمارة المساجد يومها لا تعني

27. Radek Sikorski, *Dust And Saints* (Toronto: Doubleday Canada limited, 1989) 134.

28. ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر)، 1995، 5، 396.

29. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 396/ 5.

30. محمد الفارسي الاصطخري، **المسالك والممالك**، (بيروت: دار صادر)، 2004، 265.

انشغال الناس بالصلاة فحسب، بل كانت المساجد جامعات علمية ونواديَ سياسية حيوية، فعمرانها انعكاسٌ لحيوية المجتمع المدني يومئذ.

ويؤكد الرحالة علي الهروي السائح (ت 611هـ/ 1214م) حيوية الثقافة في خراسان مقارنة بإحدى أهم الحواضر الإسلامية؛ فيقول: «وجامع دمشق ليس للإسلام هيكلٌ للعبادة مثله بعد المسجد الأقصى ببيت المقدس، أعنى في حسن عمارتهما، وأما في الاشتغال بالعلم والحديث فإلى جامع مدينة هراة وبلخ وسجستان المنتهى.»[31] وهذه المقارنة تأخذ أهمية خاصة إذا صدرت من رحالة مثل الهروي الذي زار كل المدن الحيوية في الحضارة يومها داخل أرض الإسلام وخارجه. حتى إن المؤرخ ابن خِلّكان (ت 681هـ/ 1282م) يقول إن الهروي «كاد يطبق الأرضَ بالدوران؛ فإنه لم يترك براً ولا بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه. ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدتُ ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها»[32]. وثمة بعد آخر، وهو أن المدن التي تنتج نمط هذا الرحالة هي مدن حيوية منطلقة منفتحة على الحياة.

وقد أخرجت هذه المدينة أعدادا لا تحصى من العلماء والفنانين والشعراء، حتى إن الشاعر الأوزبكي علي نوائي (ت 907هـ/ 1501م) قال: «إنك لن تمدَّ رجليكَ في هراة إلا ركلتَ شاعرا»! كما خرجتْ منها كتب علمية طُبع بعضها عام 1665 في أوكسفورد، وظلت مضامينها ورسومها حول النجوم والمجرات دقيقة حتى اليوم.[33]

---

31. علي بن أبي بكر بن علي الهروي، **الإشارات إلى معرفة الزيارات**، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية)، 1423هـ، 23.

32. أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر)، 1994، 346/ 3.

33. Rashid, *Taliban*, 38

ولا جَرَمَ أن يكون المزاج الهروي مزاجا مقاوما للغزاة؛ فقبل أربعة عقود ثار سكانها على الروس في مارس/ آذار عام 1979، لكن الروس ردوا بقصف المدينة ودمروها تدميرا لم يقم به المغول من قبل، حتى إنهم حولوا معالمها القديمة إلى حقل ألغام لا يقدر الهروي على العبور منه.

بلخ

وإذا ما تركنا هراةَ وصعدنا إلى الضلع الشمالي فسنجد مدينة بلخ غافيةً على أطلالها الماجدة قربَ مزار الشريف المعاصرة. وبلخُ من المدن العتيقة التي كانت محورية في الدراما البشرية؛ فقد أنتجت خميرتُها الحضارية شخصياتٍ مركزيةً في رحلة العقل البشري، ويحفظ لها التاريخ أنها مرقد زرادشت، وأنها «ظلت واحدة من كبريات مدن العالم لفترة لا تقل عن خمسة آلاف عام»![34] حسب عبارة توينبي.

ولعل من سخريات الأيام أن الولايات المتحدة عندما بدأت قصف أفغانسان نهاية 2001، كان الأمريكيون إذا عادوا إلى بيوتهم في المساء يبحثون عن ذواتهم المطمورة في ديوان شاعر من بلخ. فقد ذكرت إحصائيات ثقافية يومئذ أن شعر جلال الدين الرومي (ت 672هـ/ 1273م) هو أكثر الأشعار قراء في الولايات المتحدة.[35]

عُرفت بلخ في تاريخها بعدة أسماء تدل على مكانتها الحضارية والسياسية المركزية؛ فقد سُميتْ «أمَّ المدن» ونوديتْ بـ«الحسناء» كذلك.(36)

34. Toynbee, *Between Oxus and Jumna*, 85.

35. http://content.time.com/time/subscriber/article/0,33009,356133,00.html (retrieved on 29, Sepmtember, 2021, 11:10 GMT).

36. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، (بيروت: دار التراث)،1387هـ، 1/ 538.

وخرَّجتْ آلاف العلماء في كافة المجالات، ولا يكاد الرحالة والمؤرخون يذكرون العقول التي خرجت منها إلا استخدموا عبارات تعميمية مثل: «خرج منها عالَم لا يُحصى من العلماء»،[37] لتعذر العد والإحصاء للمنتج الثقافي الخارج من بين أسوار تلك المدينة. وظلت دوما مدينة مزدهرة عامرة، مميزة بجامعاتها وجوامعها، وشوارعها النظيفة، ونظامها الزراعي المحكم الذي بُني قبل أربعة آلاف عام.[38]

وقد أنتجت وفرةُ المدارس فيها اعتقادا في نجابة أهلها وتفوقهم العقلي، حتى إن الإصطخري جزم بأن «أنجب أهلِ خراسان أهلُ بلخ ومَرْو فى الفقه والدين والنظر والكلام».[39] ويندر أن يتكلم عنها رحالة إلا بالغ في حالتها الحضارية والعقلية، وألمح لوفرة التعليم، وتوافر الأوقاف؛ فـ«بها مدارسُ للعلوم ومقاماتٌ للطلاب، والأرزاقُ جاريةٌ على من شاء شيئا من ذلك»[40] ولعل العبارة التي أوردها الإدريسي (ت 560هـ/ 1165م) بعد ذلك هي الأكثر دقة؛ فبعد أن أطنب في ثرائها الاقتصادي والثقافي قال: «وبها أحوال صالحةٌ»[41] وهي عبارة تختصر معنى استواء الأمور على الحال المحمودة ثقافيا واقتصاديا وسياسيا.

ويحسب لبلخ كذلك أنها أخرجت للعالم أولَ كتاب في الطب النفسي؛

37. عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي، **الأنساب**، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، (حيدر آباد: مجلس دائرة المعارف العثمانية)،1962، 3/ 304.

38. Pierre Briant, *From Cyrus to Alexander* (Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2002), 77–9, 743–54.

39. أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، **المسالك والممالك**، (بيروت: دار صادر)، 2004، 282.

40. محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، (بيروت: عالم الكتب)، 1409هـ، 483/ 1.

41. الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، 483.

فقد انتبه أحمد بن سهل البلخي (ت 322هـ/ 934م) إلى أن الأطباء يهتمون بالأعضاء وأمراضها، لكنهم يغفلون الأرواحَ وأدواءَها، فوضع كتابا دعا فيه أطباء العالم إلى بدء الدراسات النفسية، وتفريعِ الطب إلى قسميْ: الطب العضوي والطب النفسي.[42] ولم يتميز أحمد بن سهل بعلومه الدقيقة فحسب، بل جزم أبو حيان التوحيدي (ت بعد 400هـ/ 1010م) بأن قلمه كان من أجمل ثلاثة أقلام أخرجتها اللغة العربية».[43]

غير أن هذه المدينة الاستثنائية توارت عن المسرح التاريخي يوم نزل بساحتها جنود جينكيز خان عام 618هـ/ 1221م؛ فقد حقد على أهلها لأنهم قاوموه فأبادهم، كما جرت عادته مع المدن المقاومة لجيوشه. يقول ابن عبد المنعم الحميري (ت 727هـ): «وكان القتلى بنيسابور وبلخ وهراة أكثر مما كانوا بمرو. وهذه أمهاتُ مدنِ خراسان التي كان المثل يضرب بعمارتها وعظمها»![44] ثم يختم تعليقه على حالة هذه المدن بخاطرة مترعة بالدلالة وكأنه يكتب شهادة وفاة بلخ: «خربوها وقتلوا أهلها في بعض سنة، وفعلوا في مدارس هذه المدن وربضها (= أحيائها) ما تنبو عنه الأسماع؛ فسبحان من أرسلهم لطيِّ الدنيا»![45] وبالفعل؛ فقد طُويت الدينا، وذوتْ الحياة الثقافية والاقتصادية الاستثنائية في بلخ وأخواتها، وخرجت «أم المدن» من التاريخ بسبب الغزو المغولي، أو «السلاح النووي في وقته»؛ حسب العبارة الدقيقة

42. أحمد بن سهل البلخي، **مصالح الأنفس والأبدان**، (جدة: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث)، 1424هـ.

43. ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، **معجم الأدباء**: **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار الغرب الإسلامي)، 1993، 258/ 1.

44. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة ومطبعة السراج)، 1980، 533.

45. الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، 533.

للويس دوبري. فقد «كان جينكيز خان القنبلةَ الذرية في وقته؛ وما زالت جراحُ تلك القنبلة وآثارها الاقتصاديةُ ماثلة في غربي آسيا...؛ فالمدن الخرِبة وقنواتُ الري المطمورة أتربةً تقف اليوم كتمثال لجنكيز خان»![46]

ويلمح دوبري إلى أن المدينتين اليابانيتين هيروشيما ونغازاكي تعافتا من الضربة النووية الأمريكية المعاصرة، أما حواضر غربي آسيا فلم تستعد عافيتها أبدا من الضربة المغولية المتوحشة. ولعل ذلك عائد إلى ذهاب الناس وموتهم، ووجود فراغ بشري عاق عودةَ الحياة ومنع نقلَ الخبرات الحضارية. وقد نبّه ابن خلدون (ت 808هـ/ 1406م) - وهو العالم بعلل الحضارة الإسلامية- على أن فناء أعداد كبيرة من الناس دفعة واحدة - بطاعون أو غيره- يقود إلى فناء الحضارة واختفاء خصائص المدن. يقول مثلا معلقا على الحواضر التي ضربها الطاعون سنة 749هـ/ 1378م: «وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر: فخربتْ الأمصارُ والمصانعُ ودرست السُّبلُ والمعالم، وخلتْ الدّيارُ والمنازل وضعُفت الدّولُ والقبائل وتبدّل السّاكن...، وكأنما نادى لسانُ الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة...، وكأنه خَلق جديد ونشأة مستأنَفة وعالَم محدَث»![47] ومن اللافت هنا تطابق عبارة الحميري عن «طيِّ الدنيا» بإفناء المغول للمدن الإسلامية، وعبارة ابن خلدون عن «انقباض العالم» بوباء الطاعون.

ومع كل هذا؛ فإن من يزور اليوم أطلال إحدى تلك المدن، ويتجول فيما بقي من حواريها القديمة يلحظ أن سكانها أحفاد حضارة عتيقة، وأبناء مدن عريقة. يلحظ ذلك في طعامهم وملابسهم ونظرتهم إلى أنفسهم وللتاريخ. أما أرقام التنمية البشرية التي تُصدرها الأمم المتحدة عنهم وعن مدنهم؛ فما

46. Louis Dupree, *Afghanistan*, (New Jersy: Prinston University), 1980,316.

47. عبد الرحمن ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر)،1408هـ- 1988م، 43/ 1.

هي عندهم إلا تَذكارٌ بحجم المآسي التي عانوها في الماضي، وما زالوا يعانونها بسبب ثنائية الغزاة والحماة.

قندهار

اشتهرت قندهار إعلاميا –طيلة العقود الماضية– لتمركز قادة طالبان فيها؛ فهي تمثل العمق البشتوني الذي يُروّي جذورَ الحركة روحيا وعسكريا. فهي المدينة التي اتخذها الملا عمر دارا ولم يتركها حتى بعد سيطرة حركته على كابل.

وقندهار مدينة قديمة طبعها الأفغان بخصائصهم الجسدية والنفسية، كما طبعوا معظم المناطق المحاذية لها مما عُرف تاريخيا بمنطقة سجستان الواسعة. فاحتفظت هذه المنطقة بخصائص في اللباس والهيئات والمحافظة الشديدة، ما زالت عينُ الناظر ترصدها في شوارعها اليوم على نفس الهيئة التي رصدتها عليها أعين الرحالة عبر القرون.

وإنْ أنْسَ لا أنْسَ تَجوالي ببعض المناطق المتاخمة لها عام 2017؛ حيث كنت أتأمل الشوارع وكأني أقرأ نصا مما كتبه الإصطخري قبل أكثر من ألف عام. فقد تأملت الملابس واللِّحى والوجوه مفكرا في أن الشخصية القندهارية لم تطلها يد التغيير كثيرا. يقول الإصطخري:

«وفي رجالهم عظم خَلْقٍ وجلادةٌ، ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة، ويعتمّون بثلاث عمائمَ وأربع، كل واحدة لون: ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض وغير ذلك من الألوان (...)، وليس بينهم من المذاهب غير الحنفية من الفقهاء إلا قليل نادر. ولا تخرج لهم امرأة من منزل أبدا، وإنْ أرادت زيارة أهلها فبالليل».[48]

48. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر)،1995، 3، 190.

فما زال التسلح والعمائم واللحى من الخواص الاجتماعية والثقافية لقندهار حتى اليوم، وما زال التحفظ على الوجود النسوي في المجال العام كما هو. ومن الطريف أن مؤلفا آخر من أهل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي يضيف خاصية أخرى، وهي الخلاف السياسي الأبدي مع الحكم المركزي في كابل. فيقول الحميري إن أهل قندهار «قوم يمتازون بلحاهم من غيرهم، فإنهم يتركون لحاهم تطول (..) وهي عراضٌ، كثيرة الشعر (..) وهم يحاربون ملك كابل».[49] وسندرك مغزى دلالة النص هنا على محاربتهم لملك كابل بالخصوص إذا علمنا أن كابل كانت «صانعة الملوك» في المناطق التي حولها؛ فالرحالة الإدريسي يذكر -في «نزهة المشتاق»- أن «ملوك الشاهية لا تتم لهم الولاية إلا لمن عُقدت له بالملِك في كابل، وإن كان منها على بعد فلا بد له من المسير إليها حتى تُعقد له الشاهية بالملِك.»[50] وثمة خاصية أخرى لقندهار وهي شراستها مع الغزاة؛ فقد عُرف أهلها بالمناجزة والمدافعة والمطاولة للمحتلين، حتى إن المغول الذين كانت المدن تسقط أمامهم تباعا - سلما أو حربا- هزمتهم وأرهقتهم طويلا. فقد تحول قائدها الخوارزمي جلال الدين مَنْكَبَرْتي (ت 628هـ/ 1231م) إلى شوكة في حلق جنكيز خان ، وأسقط صورة جيشه الذي لا يقهر. يقول ابن خلدون عن بلاء قندهار في حرب التتار: «وبعث [جينكيزخان] ابنَه طولي خان لقتال جلال الدين، فهزمه جلال الدين، وقتله ولحق الفَلُّ من عساكره بجنكزخان فسار في أمم التتر، ولقي جلال الدين فانهزم ولم يفلت من التتر إلا الأقل»[51].

ولعل من المميزات الثابتة للثقافة القندهارية حماية الغريب، والدفاع عن الخائف الطريد؛ فمنذ أيام الأمويين وحتى أحداث 11 من سبتمبر/ أيلول،

49. الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، 474.

50. الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، 1/ 469.

51. ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 590/ 5.

اشتهرت المناطق المحاذية لقندهار بأنها قلعة للطريد ومأوى للخائف، بسبب الثقاقة الاجتماعية المقدّسة لحماية الملهوف المستجير.

يروي أحد أنصار الثوار على العباسيين قصة أخذه لأحد المطارَدين إلى المنطقة فيقول: «دخلنا قندهار فأحللته قلعةً لا يرومها رائمٌ، ولا يطير بها طائر... فنزلنا بين ظهرانيْ قوم (..) يطردُ أحدُهم الأرنبَ فتَضيف (= تكون ضيفة) قصرَ صاحبه، فيمنعها ويقول: أتطلبُ جاري؟!». [52]

أما القزويني (ت 682هـ/ 1283م) فيؤكد هذه الخاصية لأهل المنطقة، مضيفا إليها بعدا آخر وهو الحاسة الدينية القوية المندفعة للتغيير حتى ولو قادت إلى المهالك؛ فهم معروفون بـ«مسارعتهم إلى إغاثة اللهيف، ومؤاساة الضعيف، وأمرِهم بالمعروف ونهيِهم عن المنكر، ولو كان فيه جدع الأنوف»![53]

ولذا ظلت هذه المنطقة مشهورة بإيواء الغريب والدفاع عنه؛ وهو أمر منتشر في أكناف خراسان كافة، وألصق بمنطقة قندهار ونواحيها خاصة. فعبد الله ابن عباس نها الحسينَ بنَ علي عن الذهاب إلى العراق طلبا للنصرة، ونصحه بالتوجه إلى اليمن أو خراسان. وهي نصيحة سياسية منبئةٌ عن معرفة ثقافية وسياسية فذة. فعندما ذهب أحفاد عليّ بعد عقود إلى اليمن أسسوا ملكا عُمّر أكثر من ألف عام، ولمّا ذهب دعاة الدولة العباسية إلى خراسان عادوا بالنصر المؤزر والرايات السود التي قلبت الدولة الأموية وأقامت الخلافة العباسية التي «كانت دولة خراسانية»؛[54] بعبارة الجاحظ (ت 255هـ/ 869م) الذي يصف أهل خراسان بأنهم «هم أهل الدعوة

52. أبو الفرج الأصبهاني، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق: السيد أحمد صقر، (بيروت: دار المعرفة، بيروت) دون تاريخ، 270.

53. زكريا بن محمد بن محمود القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، (بيروت: صادر)، دون تاريخ، 202.

54. أبو عثمان الجاحظ، **البيان والتبين**، (بيروت: دار ومكتبة الهلال)، 1423ه، 237/ 3.

[العباسية] ومخرج الدولة.»[55]

وفي القرن الثامن الهجري يحدثنا ابن بطوطة (ت 779هـ/ 1377م) أنه عندما مر على قندهار قام الحاكم بترك قصره والخروج منه، احتفاءً به وبالضيوف الذين معه مبالغة في إكرامهم؛ فقال: «ولما وصلنا إلى قندهار خرج [الحاكم] إلى استقبالنا وعظّمنا أشدَّ التعظيم، وخرج عن قصره فأنزلنا به».[56] وهذا سلوك منبئٌ بعمق ثقافة الإيواء والجوار في الوسط القندهاري عموما، وهي ثقافة ما زالت ملموسة في تلك المناطق إلى اليوم. ولعل كل ما مرت به أفغانستان منذ العام 2001 انعكاس لهذا التمسك الاستثنائي بفلسفة إيواء الطريد وتأمين الخائف.

هذه المدينة -ذات العمق الحضاري والخصائص التاريخية والاجتماعية المبيّنة أعلاه- هي التي خرج منها كثير من قادة طالبان. كما كانت أرضها خميرةً ثقافيةً تشكلت فيها النواة الأولى للحركة التي ستناجز الأمريكيين حتى النهاية، مبرهنةً مجددا على صحة ما سجله لأهلها قديما الشاعر العربي يزيد بن مفرّغ الحميري (ت 69هـ/ 689م):

كم بالدروب وأرض السّند من قَدَم * ومن جماجم صرعَى ليتهم قُبروا

بقندهار، ومن تُكتب منيّته * بقندهار يُرجَّمْ دونه الخَبر![57]

55. عمرو بن بحر الجاحظ، **الرسائل السياسية**، 1/ 485.

56. محمد بن عبد الله ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، (بيروت: دار الشرق العربي)، دون تاريخ، 2/ 428.

57. أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، (بيروت: دار الفكر)، 6/ 320.

الفصل الثاني: انبثاق حركة وميلاد وزعيم

في البدء كانت المرأة

في خريف عام 1994 وصل خبر فظيعٌ لأذنيْ معلم أطفالٍ في قندهار يُدعى المُلّا محمد عمر. كان الخبر عينةً من أخبارٍ بدأت تنتشر في المدينة التي يتقاسمها زعماء المليشيات المتشظية من بقايا كتائب الجهاد ضد الروس. تدور القصة حول اختطاف زعيم مليشيا يدعى القائد صالح لفتاتين واغتصابهما، دون أن يثنيه أحد عن جريمته بسبب تسلّط المليشيات وتحكّمها في البلاد.

تحركت غيرة الملا عمر فجمع 30 رجلا بحوزتهم 15 بندقية. وانطلقوا فاستخلصوا الفتاتين، وقتلوا القائد وعلقوا جثته على فوهة دبابة روسية مهملة في أحد شوارع المدينة. وبعد هذه الواقعة بأيام سقط أبرياء أثناء اشتباك بين قائديْ مليشيات متنازعيْن على حيازة غلام لاستغلاله جنسيا. قام الملا عمر ومجموعتُه أيضا بتحرير الطفل وقتل مغتصبيه غيرةً وديانةً، لا استرزاقًا وطمعا كما جرت العادة[58].

سيرتبط اسم طالبان في الإعلام الغربي لاحقا بالتضييق على النساء والضيق بهن في المجال العام، لكن التاريخ يحفظ للحركة أنها قامت في جذورها انتصارا للمرأة. وهكذا كانت هذه هي الشرارة التي أعطت طالبانَ سلطانا على قلوب الأهالي في منطقة قندهار التي مزقتها المليشيات المنشعبةُ من فصائل المجاهدين. بعد الحادثة بأيام اجتمع الملا عمر وعشرات الرجال

58. Ahmed Rashid, *Taliban, Militant Islam, oil and Fandamantalism in Central Asia*, (Yale University Press), 2000, 25.

في المسجد الأحمر بسنجيسار خريف 1994[59] واتفقوا على إعلان الميلاد الرسمي للحركة.

وُلدت طالبان من رحم المجتمع البشتوني ولادةً طبيعية باعتبارها إجابة عملية على الانفلات الأمني المخيف؛ فلم تولد مشروعا سياسيا ذا رؤية فكرية أو سياسية متبصرة، ولا خطّط مؤسسوها لحكم البلاد وإخضاع بقية أفغانستان، بل كانت إجابة أمنية مجتمعية، لا غير. فظهرت لتأمين الممتلكات والأرواح والشوارع والأسواق وحفظ الأعراض في مجتمع قبلي محافظ، ثم إنها نبتتْ في بيئة يحترمها الأفغان وهي بيئة المدارس الإسلامية، وحمل رسالتها شيوخ المدارس في بلد «للعلماء فيه شأن عظيم»[60] كما يقول جمال الدين الأفغاني.

ولذا ما كادت بذرتها الأولى تظهر حتى بدأت الأحياء في قندهار تستدعيها وتسلمها مفاتيحها تباعا.

كان أول عمل ينتظر الحركة الوليدة محاولة السيطرة على بعض نقاط التفتيش المنتشرة في كل ركن. وكانت نقاط التفتيش هذه مكانا للرعب؛ حيث يقوم المسلحون المشرفون عليها بابتزاز المارة، أو الاعتداء على أرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم. فقامت الحركة بمهاجمة عدة حواجز يسيطر عليها قادة مليشيات، وبدأت تغنم السلاح والعتاد بعد أن كان قادتها لأسابيع لا يملكون إلا دراجة نارية واحدة تبرع بها الملا عبد الستار أخوند، وكانوا يسمونها «دبابة الإسلام».[61]

قامت الحركة في أسابيعها الأولى بتأمين المناطق التي استولت عليها ولم تطلب مالا من أحد، وأصبح البشتون يأمنون على بناتهم أنْ يسرن في الشارع

---

59. عبد السلام ضعيف، **حياتي مع طالبان**، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر)، دون تاريخ، 147.

60. الأفغاني، **تتمة البيان**، 15.

61. عبد السلام ضعيف، **حياتي مع طالبان**، 151.

لأول مرة منذ فترة طويلة. وهكذا قاد هذا الأسلوب إلى احتضان شعبي هائل لحركة الملا عمر ورفاقه. ولعل القصة التالية التي يوردها عبد السلام ضعيف -أحد مؤسسي الحركة- دالة على عمق الترحيب الذي لاقته من مجتمعها:

«ذات يوم وصل أحد الرجال إلى الحاجز يجر كيسا من المال خلفه. قدمه لنا ففتحناه وبدأنا نعد النقود. فاق المبلغ التسعين مليون أفغاني! وهو مبلغ خيالي في تلك المرحلة لم نكن نحلم بالحصول عليه. أدهشنا سخاء الرجل، وعرضنا عليه وصلا بالأموال التي تبرع بها، والمعروف الذي أسدى لنا. رفض الرجل قائلا: «تبرعتُ بهذا المال لوجه الله تعالى وحده، ولا أريد لأحد أن يعلم بما صنعت. لا حاجة لي بوصل، ولا أرغب في الإعلان عن اسمي»»[62].

بعد فترة وجيزة من ظهور طلبان ونجاحاتها المفاجئة بدأت باكستان تدخل على الخط مستثمرةً فيها، وكانت إسلام آباد مسكونةً سياسيا بهاجسيْن أساسيين: تريد طريقا تجاريا مفتوحا لوسط آسيا، وهذا أمر مستحيل مع غياب الأمن داخل أفغانستان لكون الطريق المؤدي لوسط آسيا يمر كله عبر الأراضي الأفغانية. أما الهاجس الثاني فهو سعي باكستان لوجود حكومة بشتونية في كابل، تعين على احتواء البشتون الباكستانيين. ولهذا السبب وحده ظلت طيلة الفترة الماضية تدعم الزعيم البشتوني قلب الدين حكمتيار الذي كان أحد كبار قادة الجهاد الأفغاني، لكنه فشل فشلا ذريعا في دخول كابل التي ظل يمطرها بالصواريخ دون فائدة عسكرية[63].

ما إنْ ظهرت طالبان قوةً فتية حتى شكلت منقذا لسياسة باكستان في جارتها الشمالية؛ فهي قوة يمكن التعامل معها بسبب الوجود البشتوني في باكستان المنعكسِ في كون نحو ٪20 من الجيش الباكستاني من البشتون.

62. عبد السلام ضعيف، **حياتي مع طالبان**،152.

63. Ahmed Rashid, *Taliban*, 26.

وقد سهّل مهمةَ التعاطي الباكستاني مع طالبان كون أعداد هائلة من مقاتلي الحركة أبناءً للاجئين الأفغان في باكستان. كما ساهم زعيم جمعية علماء الإسلام الباكستانية مولانا فضل الرحمن في ترطيب العلاقة بين الطرفين؛ إذ كان له صلات ودية بقادة الحركة الذين درس كثير منهم في مدارسه المنتشرة شمالي وشرقي باكستان. حتى إن وزير الداخلية الباكستاني ظهر مفتخرا بعلاقات إسلام آباد بالحركة قائلا إن قادتها ما هم إلا «فتياننا».[64]

غير أن قادة الحركة الوليدة ما فتئوا يصرون على استقلالهم عن باكستان، مؤكدين -في كل طور- استقلال قرارهم السياسي والعسكري. وقد برهنوا على ذلك في كافة المنعرجات السياسية التي واجهتهم في آتي الأيام.

وهكذا راقب العالم مستغربا سرعةَ تقدم الحركة الوليدة التي استطاعت -خلال أسابيع من ظهورها- السيطرة على ثانية أكبر مدن البلاد، دون خسائر عسكرية ذات بال. ثم واصلت الزحف على المدن واحدةً تلو أختها؛ بالصلح حينا والحروب أحايين. لكن الحركة وجدت نفسها في مأزق وهي على أعتاب كابل بداية 1996. فدخول العاصمة يعني تحولها من حركة إلى دولة، ومن مبادرة لبسط الأمن إلى حكومة مسؤولة عن إدارة بلد كامل. وهذه حال تفرض على الحركة البتَّ في أسئلة إدارية لم يفكر فيها قادتها قط، ولا خططوا للتعاطي معها يوما.

في نهايات مارس/ آذار 1996، قامت الحركة بدعوة 1200 فقيه إلى مؤتمر للعلماء في قندهار. تقاطر الرجال المعممون ذوو اللحى الطويلة -من شتى أرجاء البلاد- على هذه المدينة الباردة الجافة، لبحث مستقبل البلاد والبت في قرارات مصيرية. مرت أيام من المباحثات والنقاشات الطويلة التي حاول فيها المؤتمرون الإجابة عن أسئلة محورية: هل يحق للحركة إعلان

64. Rashid, *Taliban*, 29.

الجهاد على حكومة كابل التي يقودها الزعيم الطاجيكي برهان الدين رباني (ت 2011م) ومن يملك حق إعلان الجهاد؟ وما الحكم في تعليم النساء والسماح لهن بالعمل؟

لم تنجح مباحثات هذا العدد الهائل من الشيوخ في التوصل إلى رأي موحد؛ فخطر للملا عمر أن يبحث عن أداة توحيد تساهم في جمع الكلمة على رأي واحد. تذكر خرقةً محفوظة داخل صندوق ذهبي على بعد عدة كيلو مترات من مكان الاجتماع.

كان قاري شوالي جالسا على كرسيه في المسجد القديم وسط قندهار. جلس شوالي عند مدخل المسجد حارساً ذلك السر الذي ورث حراسته عن أجداده منذ أكثر من مائتين وخمسين عاما، وفجأة لاحظ دخول ضيف غريب إلى المسجد. تأمل قاري الرجل الطويل النحيف الذي يتقدم جهته. كان الرجل المُمَتَّعُ بإحدى عينيه(65) يمشي هادئا لا يكاد يطأ الثرى مهابة. ردد شوالي بصره في الرجل القادم ثم تأكد أنه -دون شك- زعيم حركة طالبان الملا محمد عمر فتلقاه مرحبا. وقف الملا عمر، وصمت ثوانيَ قبل أن يتكلم -على عادته المعروفة- ثم قال بنبرة خافتة:

لقد اغتسلتُ وتعطرت ولبست ملابس جديدة فأتمنى أن تسمح لي برؤية العباءة النبوية الشريفة.

امتقع لون شوالي؛ فهذه أول مرة يُطلب فيها إخراج البردة منذ ستين عاما. غمغم شوالي ثم قال:

لكني ومساعدَيّ لم نغتسل ولم نتعطر؛ فهلا عدت وقتا آخر؟

اتفقا على موعد محدد لعودة الملا عمر. وبعد أيام عاد رفقة رجاله، وما إن وصل حتى بدأت إجراءات فتح المزار. فحافظُ المزار لا يفتح عن البردة إلا رفقة مساعديْه الاثنيْن؛ حسب الأصول المتفق عليها منذ قرنين ونصف قرن. كانت هذه العباءة النبوية -على ما يعتقده الأفغان- هدية من أمير بخاري للأمير الأفغاني أحمد شاه دوراني (ت 1772م). ومنذ تلك اللحظة

65. هذه هي العبارة المحببة في اللغة العربية لوصف من فقد إحدى عينيه، فهي تستخدم أدبا بدل كلمة «أعور». أما العبارة المترجمة «ذي العين الواحدة» فتجنبناها لعجمتها.

وهي تتوارث باتفاقيات مجتمعية لا تنخرم أبدا.

يروي شوالي – فيما بعدُ– مشهد أخذ الملا عمر للعباءة في مقابلته مع نيويورك تايمز؛ فيقول: «عندما دخل الملا إلى المزار ووقعتْ عينه على البردة ارتعد! وعندما أراد الصلاة أخطأ القبلة –لشدة ارتباكه– فاتجه جنوبا، فأمسكته ووجهته جهة مكة».(66)

أخذ الملا عمر البردة ثم أعلن –عبر إذاعة «صوت الشريعة» التابعة لحركته– دعوة الناس لرؤية بردة النبي صلى الله عليه وسلم. وهكذا تقاطر الناس من عدة مدن آتين لرؤية العباءة التي لم تخرج طيلة المائتين والخمسين سنة الماضية إلا مرتيْن؛ يوم حاول الملك أمان الله خان (ت 1960م) حشد القبائل للقتال، ويوم انتشر الوباء في قندهار عام 1939. (67)

وفي صباح الرابع من إبريل/ نيسان 1996؛ أطل الملا محمد عمر من فوق سقف بناية بينما كان العلماء المؤتمرون ينظرون إليه. وقف وبدأ يتحدث وهو ملتف بما دُعي عباءة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رفعها ليراها الناس، فارتفعت الأصوات، وسُمع النشيج في أطراف المكان، ورمى رجالٌ عمائمهم وطواقيهم في محاولة لملامسة بعض ملابسهم لملابس النبي صلى الله عليه وسلم. ثم ارتفعت الأصوات صارخة:

أمير المؤمنين! أمير المؤمنين!

ومنذ ذلك الصباح من صباحات ربيع 1996 سيُعرَف الملا عمر بلقب «أمير المؤمنين». فمع أن بعض المقربين منه كانوا يدعونه به قبلُ، فإنه لم يُرسّم

---

66. انظر المقابلة في نيويورك تايمز يوم 19 ديسمبر/ كانون الأول، 2021.

(https://www.nytimes.com/2001/12/19/international/asia/a-tale-of-the-mullah-and-muhammads-amazing-cloak.html)

67. Rashid, *Taliban*, 20.

إلا عندما هتفت به تلك الحناجر، وقد أشرف عليهم من المبنى وعلى كتفيه العباءة المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولعل من أهم العناصر التي ساهمت في تماسك الحركة، ووضوح بوصلتها، وصلابةِ مواقفها في اللحظات الحرجة؛ ذلك الزعيم الذي قادها منذ النشأة. فمنذ ظهور الحركة كان ذلك الرجل الطويل النحيل عاملَ توحيدٍ وصلابةٍ طيلة فترة زعامته الممتدة تسعة عشر عاما.

حَجَرُ الأرض: الملا عمر

«إني جربتُ هذا الخراسانيَ، وعرفت ظاهره وباطنه؛ فوجدتُه حجرَ الأرض»!

زعيم الدعوة العباسية متحدثا عن قائدها العسكري أبي مسلم الخراساني

كانت ليلةُ الرابع من ديسمبر/ كانون الأول عام 2001 ليلةً من ليالي قندهار الباردة. تقاطر الرجالُ الملتحون الملتفون في ملابسهم الفضفاضة وعمائهم الضخمة السوداء، فدخل كل منهم بسلاحه ووضعه في حضنه، وجلسوا وسط الغرفة الواسعة المفروشة بالسجاد الملون. أسند كل منهم ظهره إلى الحائط منشغلا بتسريح لحيته بيده، أو التحديق المتوتّر في الهواء انتظارا لدخول «أمير المؤمنين».

بعد دقائق من الانتظار والترقب؛ دخل الرجل الصموت ذو الحضور المهيب، فتقدم -في سكينة- إلى وسط المجلس وجلس واضعا سلاحه في حضنه، ورفع وجهه في وجوه الحاضرين الذين يعرف جيدا ما يدور في أذهانهم. فمنذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول والولايات المتحدة تقصف أفغانستان ليل نهار، وقد بدأ نظام «الإمارة الإسلامية» ينهار، وتبدو المقاومة أمرا عدميا عند كثير من القادة. لكن الرجال الحاضرين يعرفون صلابة زعيمهم وقدرته الخارقة على العمل الهادئ في أحلك لحظات التوتر. بدأ الملّا عمر بحمد الله ثم قال:

ماذا ترون؟

لم يجبه أحد!

ساد صمت مُطبقٌ مليء بالدلالات. كان كل واحد من الرجال الأشداء الحاضرين لا يعرف بمَ يجيب. فهذه الولايات المتحدة مزمجرةً غاضبةً آتيةً بكل سلاحها وجبروتها، ومن ورائها تحالف دولي مدجج بالسلاح والغضب. وهم قادةُ حركةٍ ضعيفة محاصَرة منذ وصلت للحكم. فتزلزلتْ قناعاتٌ كثيرة مع الزلازل اليومية التي تحدثها قنابل التحالف الدولي الارتجاجيّة في أطراف البلاد، لكن قناعة واحدة لم تتأثر لدى معظم قادة الطالبان، وهي اعتقادهم الراسخ بثبات قائدهم، وما لديه من مدد روحي وصلابة أخلاقية تجعله لا يولي كبيرَ اهتمام للجانب المادي إذا وثِق من صواب موقفه أخلاقيا.

بعد لحظات كثيفةٍ تجرّأ الزعيم القبلي الملا نقيب وتحدث بعاطفة عن ضرورة الاستسلام لإنقاذ الأرواح، محتجا بأن الولايات المتحدة تقصف الناسَ صباح مساء، ولا قدرةَ لأحد على قتالها. ثم اقترح أن يتنازل زعماء طالبان عن السلطة لقادةٍ جهاديين وزعماءَ قبليين لتجنيب البلاد مزيدا من الدمار.

يقول عدد ممن حضروا الجلسة إن كلمة نقيب بدت لهم وكأنها طوق نجاة قد ألقي إليهم، كما كانت تعبيرًا عن خواطر معظم الحاضرين؛[68] فليس ثمة منطقٌ لرفع السلاح الآن. بدا الملا عمر هادئا كعادته رغم الحديث العاطفي القوي المطالب بالاستسلام، ثم علق بكلمات قليلة على رأي الاستسلام فدفنه بعزمه، واقترح لزوم طريق الجهاد، متأثمًا من الاستسلام للغزاة المغتصبين. ثم بين أن على المجاهدين أن يخرجوا إلى الجبال والقرى والصحاري إذا تمكن الأمريكيون من دخول قندهار. تحدث عمر دون أن

68. حضر هذه الجلسة كثيرون منهم الملالي: عبيد الله أخوند، وعبد الغني برادر، وعبد الرزاق نفيسي، وأمير خان حقاني، وأختر محمود منصور، وعبد الواحد رئيسي باغران، وملا نقيب. انظر تفاصيلها في: Abdul Hai Mutma'in, Taliban: A Critical History from Within, (Berlin: Alle Rechte vorbehalten, 2019) 206.

يعطي فرصة لأي طريق غير النزال. توترت الجلسة، وزاد من توترها أن القصف لمكان المجتمعين محتمل في أي لحظة. فالولايات المتحدة تواصل غاراتها، وتجمع المعلومات عن أي اجتماع قد يحضره قادة من طالبان. وكان على الجميع اتخاذ قرار مصيري في وقت قياسي وجو متوتر، يخيم عليه الخوف من الطائرات الأمريكية.

بعد نقاش؛ اقترح عضو القيادة العسكرية لطالبان الملا عبد الرزاق راكتي وآخرون أن تسمح طالبان لبعض قادة القبائل المقربين منها بالعمل مع الأمريكيين، ليكونوا سندا للحركة لاحقا أثناء الجهاد. لكن الملا عمر تدخل رافضا الفكرة وقال: كيف نسمح لرجالنا بالعمل مع المحتلين المعتدين؟ على الأمريكيين أن يعيّنوا رجالهم الذين سيحاربهم المجتمع بعدُ.

بعد أخذٍ ورد تبين للملا عمر أن معظم الحاضرين يرجحون عدم القتال. طلب ورقة وقلما وكتب تفويضا بنقل صلاحياته لوزير دفاعه الملا عبيد الله. ثم وقف والتفت -قبل خروجه من الباب- سائلا:

هل تفهمون دلالة ذلك؟ هل تفهمون دلالة قراركم؟

هز الرجال رؤوسَهم بالإجابة واضعين أيديهم على صدورهم، وخرج الملا محمد عمر إلى ظلام قندهار وهو يسمع أصداء القصف الذي لا يكاد يتوقف عن العاصمة الروحية لخلافته. خرج معه قادة قليلون ممن يرون رأيه في استمرار الجهاد من أبرزهم الملا عبد الرازق نفيسي.

ظل الملا عمر أياما في قندهار مشرفا على مقاتليه المشتبكين مع القوات البشتونية التي يقودها أحمد كرزاي وحامد كرزاي. لكن الملا عبد الرازق نفيسي وآخرين قالوا لعمر إن الأمريكيين سيبذلون قصارى جهدهم لاعتقاله. وأنه لا بقاء لروح الجهاد إذا اعتُقل «أمير المؤمنين» في هذه الظروف؛

فالحفاظ على حياته ضروري للحفاظ على جذوة الجهاد حية في الصدور.

وقد أخبرني مديرُ مكتبه يومَها سيد طيب آغا أنه ذهب إلى أمير المؤمنين حيث كان «جالسا في المسجد لحظة قصف مطار قندهار. جئتُه في المسجد بعد صلاة العشاء، وجلسنا نناقش ما علينا فعله لتأمينه. انصبّ رأينا على أن يخرج للاختفاء، لكنه رفض بداية مقترِحا أن يظل في بيته مشرفا على الجهاد حتى الاستشهاد. وبعد أخذ ورد اقتنع بضرورة الخروج. لكنه اقترح أن يذهب إلى الجبال حيث توجد بيوت وأنفاق كنا قد أعددناها. اعترضنا أيضا على ذهابه للجبال لانكشافها أمام الأمريكيين الذين يصورونها دوما. ثم اقترحنا أن يختفي في إحدى القرى، فوافق على ذلك وطلب من الجميع التفرق مثنى وفرادى».[69]

قبل سقوط قندهار بيوم واحد نهايةَ ديسمبر/ كانون الأول 2001؛ خرج الملا عمر خفيةً مع مرافقيْن واختفى عن أنظار العالم إلى الأبد، اختفى عن عيون الدنيا التي كانت تبحث عنه. فمنذ خروجه في سيارة تويوتا بيضاء صغيرة من الحواري الخلفية لقندهار؛ لم تلحظه عينُ مخبرٍ ولا التقطته عدسة قمرٍ اصطناعي.

تحركت التويوتا البيضاء حاملةً في كرسيها الخلفي واحدا من أهمّ المطلوبين في التاريخ السياسي المعاصر. ذلك الرجل –ذو الواحد والأربعين عاما يومئذٍ - الذي رصدتْ الولايات المتحدة عشرة ملايين دولار لمن يدلي عنه بمعلومات.

سافر الملا عمر ورفاقه يومين كاملين حتى وصلوا ولاية زابل؛ مائتيْ كيلومتر شمال شرق قندهار. كانت الطريق مخوفة لكثرة الوشايات، وانتشار المؤيدين لحامد كرزاي، أو الباحثين عمن يباع للقوات الأمريكية. في هذه

69. من مقابلتي الخاصة مع مدير مكتب الملا عمر يومها سيد طيب آغا بتاريخ 29 سبتمبر / أيلول 2021.

الظروف دخل الملا ورفيقاه إلى مدينة «قلعة خلجي» أو «قلاتي غيلجي». غير أنهم ما إن وصلوا المدينة حتى تعطل أحدُ إطارات سيارتهم. نزلوا لإصلاح الإطار فبدأ الفضوليون يتجمعون كعادة أهل المدن الداخلية في أفغانستان.

أصلحوا الإطار عجِلين مخافةَ أن ترقبهم عينٌ أو تسمع بهم أذن، وانطلقوا بعد نصف ساعة قاصدين قرية بمنطقة سُورَيْ. كان المرافق الرئيسي للملا عمر شابا متصوفا -وفقا للمنهج الطالباني الديوبندي- يدعى عبد الجبار عمري. وصلوا إلى إحدى القرى وبقوا أياما بمنزل رجل يدعى شير علي. ثم تحولوا إلى بيت شقيقة الملا عمر بقرية «شنكي»، حيث بقوا أياما في ضيافتها هي وزوجها مولوي عبد الرحمن. كانت الخطة الأمنية في هذه الفترة تقتضي دوام تغيير المسكن حتى تتضح الأمور ويرتب منزل مستقر للملا عمر.

بقي الملا عمر أياما في بيت أخته ثم تحول بعد ذلك إلى منزل مولوي أكرم داخل قرية شنكي. وبعد نحو أسبوع قرروا إخراجه من شنكي والتوجه إلى مدينة سوريْ، حيث استقبلهم عبد الكبير وأقاموا عنده نحو ثلاثة أسابيع. بعد ذلك كان الأخوان عبد الصمد وعبد الأحد ومعهما عبد الجبار عمري قد اختاروا المكان الذي سيتخذه الملا عمر سكنا دائما، والواقع في قرية تدعى «خورا» داخل مقاطعة سوريْ[70].

70. مصدر هذه التفاصيل الدقيقة مقابلة أجريتها مع أمين الشؤون العسكرية للملا عمر، عبد الأحد جهانغير والْ. يوم الخامس من أكتوبر/ تشرين الأول 2021. وقد اتصلت أنا وعبد الأحد مرتين هاتفيا أثناء المقابلة بعديل الملا عمر عزيز الله للتأكد من بعض التفاصيل. فقد كان عزيز الله مسؤولا عن كل تنقلات الملا عمر في هذه الفترة وكان رسوله المعتمد.

وصل الملا عمر إلى منزل الأستاذ عبد الصمد في قرية «خورا» بمنطقة سوريْ. كان المنزل بيتا طينيا عاديا كغيره من بيوت المنطقة لا يتميز عنها بشيء. بيت ذو جدران عالية وفضاء واسع في الوسط، وحُجُرات مرصوصة في أطرافه. لكن ثمة غرفة ضيوف واسعة معزولة في طرف الحائط الشرقي بقربها حمام خارجي للاستحمام كعادة القرى الأفغانية.

قام عبد الصمد بإغلاق الباب الرابط بين الحجرة وبقية المنزل. ثم بنى مختبأ صغيرا مُسامتاً للحمام يتسع لشخصين. موَّه مدخلَ المخبأ بحيث جعله قصيرا نصفَ متر، ثم وضع على بابه لوحةً ترويجية للعطور وأدوات الحلاقة. فإذا رآها شخصٌ ظنها لوحة دعائية في طرف الحمام توضع عليها أدوات الاستحمام التي يحتاجها الداخل إلى الحمام. بهذه الإجراءات البسيطة جُهزتْ هذه الغرفة الطينية لتكون إقامةً لواحد من أشهر «المتوارين» في التاريخ[71]. ذلك الرجل الذي كان اسمه يتردد صباح مساء على كافة وسائل الإعلام الدولية بكافة اللغات. ومن الموافقات الغريبة أن يتواري الملا عمر بهذه المنطقة من مناطق سوريْ، التي تعني بالبشتونية الظل.

ربما اختار الملا عمر ولاية زابل لكونها تخضع واقعا لزعامات قبلية مقربة من طالبان، وإنْ كانت خاضعةً رسميا للأمريكيين وحكومة كابل. ثم إن لمرافقه عبد الجبار عمري صلات قبلية قوية في المنطقة ستساعد في توفير

71. من غرائب الأقدار أنه يوجد في التراث الإسلامي كتاب بعنوان «كتاب المتوارين» يرصد حياة شخصيات اختفت وتورات هربا من السلطات. ومن المصادفات أن الفقيه الشهير –العصي على التطويع– سعيد بن جبير توارى نفس المدة التي تواراها الملا عمر. انظر: عبد الغني الأزْدي، كتاب المتوارين، (بيروت: دار القلم)، 1410هـ.

غطاء أمني لهما عند الضرورة. وينحدر معظم سكان المدينة من فرع بشتوني يدعى «هُتَكْ»، وهو الفرع الذي ينحدر منه الملا عمر. و»هُتَكْ» جزء من قبيلة غيلزايْ البشتونية المعروفة بشراستها وغيرتها على حوزتها الترابية وعلى حماية أبنائها من الغريب. وما زال التاريخ الحي يحفظ أن هذه القبيلة هي التي أبادت الجيش الإمبراطوري البريطاني كاملا، كما سيأتي بعد.

ما إنْ وصل الملا عمر إلى مسكنه الجديد حتى دعا لاجتماع ببعض قادته الميدانيين الذين قرروا معه مواصلة النضال. وقد حدثني أمينه للشؤون العسكرية –عبد الأحد جهانغير والْ– أنه حضر هذا الاجتماع وكان في مكان غير سكن الملا عمر.

وصل القادة العسكريون للاجتماع فوجدوا عمر جالسا في طرف بيت واسع مفروش ببُسُط عادية. جلس وظهره إلى الحائط بينما كان مرافقاه يحملان أسلحة خفيفة. كان الجو باردا جدا، فظهر الملا عمر «في معطف أسود وعمامة رمادية على غير عادته، بل لعله لبسها للضرورة الأمنية. لأن عادته لبس العمامة السوداء مثل العلماء وطلاب العلم»؛ حسب عبد الأحد.

تحدث عمر إلى القادة طالبا منهم ألا يسلموا أسلحتهم أبدا، وإذا تحتّم عليهم ذلك فعليهم تسليمها لرجال القبائل لا للأمريكيين أو أتباعهم. واصل عمر حديثه وتنسيقه مع قادته بينما قُدِّمت للحاضرين كؤوس الشاي الأخضر، والمكسرات المختلفة، وبعض العصائر المحلية. وكان من بين الحضور عبد الرازق نفيسي، وكبير قادة طالبان في ولاية زابل الملا روزي خان، والملا محمد علي، وبدأ التخطيط معهم لشن هجمات على الأمريكيين رغم عدد المقاتلين القليل. لم يكتف الملا عمر في هذه المرحلة بالتخطيط والتوجيه بل انخرط شخصيا في مناجزة الأمريكيين. غير أن القادة طلبوا منه لاحقا التوقفَ عن القتال خوفا عليه، وأقنعوه بأن غَناءَه جندياً لا يكافئ

بلاءَه قائدا مُوجِّها وخزّانا معنويا لأتباعه. نجحوا في حمله على البقاء في بيت عبد الصمد على ألا يخرج منه إلا للضرورة القصوى[72].

تواري الملا عمر داخل ذلك البيت الواقع قرب مقر والي المدينة المعروف بعدائه لطالبان. ولم يخبر الأستاذ عبد الصمد أحدا من أسرته -غير زوجته- بهوية الضيف الذي يعيش بين أسوار منزلها. بل اكتفى بتحذير أسرته من أن هذا الضيف رجل مهم من طالبان، وأن عليهم كتمان أمره وعدم الحديث عن وجوده مع أي كان. ثم واصل عبد الصمد يومياته سائقا للأجرة في المنطقة، بينما تشابهت أيام الملا عمر وحارسه عبد الجبار.

كان عبد الصمد يغدو ويروح من منزله إلى القرى القريبة عاملا، وكان يسمع صخب العالم المتحدث عن الرجل الذي يعيش في منزله. أما عبد الجبار فكان لا يفارق الملا عمر إلا نادرا. يتقاسمان الغرفة الواحدة وأحيانا لا يتحدثان يوما كاملا. فعمر رجلٌ صموت هادئ، دائم التفكير والصلاة والدعاء «وهو ولي من أولياء الله»؛ كما يصفه عبد الجبار. كان يوزع وقته بين الصلاة والقراءة، والجلوس ساعات طويلة وظهره مُسْنَد إلى الجدار.

يحكي عبد الجبار أنه دخل عليه مرة فوجده ساكنا لا يتحرك ورأسه مسندٌ إلى الجدار وعيناه مغمضتان. ناداه فلم يجبه، عندها خُيِّل لعبد الجبار أن مكروها أصابه فأمسكه وهزه فاستيقظ وفتح عينيه ونهره. وبعد يوم جاء عمر إلى عبد الجبار معتذرا عن نهره إياه، مبينا أنه كان غارقا في ملكوت الله، متأملا السماوات والأرضين والأنجم والمجرات السابحات الدالات على قدرة الخالق، مما أفقده تركيزه ووعيه[73].

يقول عبد الجبار إنهما شعرا بأمان نسبي في هذه المنطقة خلال السنوات

72. من مقابلتي مع مع أمين الشؤون العسكرية للملا عمر، عبد الأحد جهانغير والْ.

73. Bette Dam, *The Secret Life Of Mulla Omer*, Zomia Center, n.p: n.d, 15.

الثلاث الأولى من إقامتهما فيها بمنطقة «خورا» بضواحي سوري. فقد كان الحضور العسكري الغربي محدودا، ومقتصرا على كتائب تأتي من قندهار لتقوم بمهمات ليوم أو يومين ثم تعود. غير أن الوضع الأمني بدأ يتوتر ابتداء من عام 2004 حين نجحت طالبان في إعادة ترتيب صفوفها والقيام بعمليات نوعية ضد الأمريكيين. وقال لي طيب أغا: «إن الهجوم الأمريكي على العراق كان اللحظة التي تنفس فيها المجاهدون بسبب انشغال الأمريكيين بالعراق. ولذا بدأت المقاومة تحتد ابتداء من عام 2003». وعندما بدأت طالبان تنجز عمليات نوعية؛ بدأت المداهمات الأمريكية تكثر في المنطقة حيث يتوارى عمر. ومن غرائب التاريخ أن الأمريكيين اقتربوا من الملا عمر مرتين في هذه الفترة؛ إذ جاءوا مرةً وفتشوا البيت تفتيشا تاما.

حيث تروي زوجةُ عبد الصمد لزوجها أنها كانت جالسة ذا مساء تُنضج الخبز في الفرن، ففاجأها اقتحام الأمريكيين للمنزل وهم يصرخون. وضعت الخبز الذي كان في يدها في الفرن وفقدت تركيزها خوفا من عثورهم على الملا عمر. تجاوزوها ودخلوا إلى البيت، ثم تجاوزوا الحجرات ودخلوا حجرته الشخصية. لكن الملا كان قد سمع أصواتهم فخرج من حجرته ودخل المختبأ المسامت للحمام وأغلقه عليه. أتم الجنود التفتيش ثم دفعوا الباب وخرجوا، بينما كان دخان الفرن يتصاعد بسبب نسيان زوجة عبد الصمد للخبز داخل الفرن -من شدة الفزع- حتى احترق[74].

لا أحد يعرف أكان هذا التفتيشُ بحثا عن الملا عمر، أم تفتيشا عاديا ضمن العمليات التي كان الأمريكيون يقومون بها يوميا في أفغانستان. أما المرة الأخرى التي اقترب فيها الأمريكيون من الملا عمر -أثناء اختفائه في

74.هذه التفاصيل رواها لي أمينُ الملا عمر للشؤون العسكرية عبد الأحد جهانغير والٌ نقلا عن عبد الصمد. رواها لي يوم 05 أكتوبر/ تشرين الأول 2021.

هذا البيت- فقد كانت حين خرج هو وعبد الجبار من حجرتهما ليلا، فرأوا الجنود يقتربون، فركَضَا واختبآ وراء كومة حطب حتى مر الجنود أمامهما. لكن الأمريكيين لم يكتفو بالزيارات المتقطعة لسوريْ، بل وقع أمر مفاجئ جعل الملا عمر يفكر في تغيير موقع اختفائه.

ففي 2004 قررت الولايات المتحدة بناء قاعدة عسكرية في المنطقة، فاستيقظ الملا عمر وعبد الجبار ذات يوم على أصوات المهندسين العسكريين المنشغلين بتشييد قاعدة على بعد دقائق منهما. بعد ذلك بأيام خرج عمر ورفاقه باكرا ولسان حاله ينشد قول بشار بن بُرْد (ت 167هـ/ 783م):

إذا أنكرتني بلدةٌ أو نكِرتُها * خرجتُ مع البازي عليَّ سوادُ!

خرجوا بترتيب وتنسيق من الأستاذ عبد الصمد إلى قرية أخرى من قرى سوريْ. اختار عبد الصمد -هذه المرة- بيتا يبعد ستة كيلومترات عن الطريق الرئيسي الرابط بين قندهار وزابل. يتألف البيت من منزل طيني كبير تسكنه أسرة، ويقع على ضفة نهر صغير، تتفرع منه قنوات للري التقليدي. قام عبد الصمد ببناء خُصٍّ وراء المنزل الطيني على ضفاف النهر ليكون مسكن أمير المؤمنين، لكن الملا عمر ما إنْ تعرّف سكنَه الجديد حتى جاء الأمريكيون أيضا وأسسوا قاعدة «وولفرين» على بعد كيلومترات من خُصِّه.

وتفيد المعلومات المتوفرة عن القاعدة أنها كانت ضاجة بالحياة، مليئةً بأصناف القوات الأمريكية. كما كانت تقوم بعمليات بحثٍ وتمشيط وقتال في عدة مناطق من البلاد.[75] كان جنود القاعدة ومخبروها يسافرون مئات الكيلومترات بحثا عن قائد طالباني، بينما ينام الزعيمُ الروحي لطالبان قريرَ

75. https://www.benning.army.mil/infantry/magazine/issues/2010/MAY-AUG/pdfs/MAY-AUG%2010.pdf (retrieved on 05 October, 2021, at 7 Am GMT.)

العين قرب قاعدتهم «مما يشي بفشل استخباراتي مُريع».[76]

بدأ الحضور الأمريكي يتكثَّف في سوري عموما لارتفاع وتيرة العمليات الطالبانية، حتى إن القوات الأمريكية قدّرت يومها عددَ مقاتلي طالبان في المنطقة بألف وخمسمائة مقاتل[77]. لكن الملا عمر بقي في خُصه على ضفاف النهر!

كان الأمريكيون يقتربون في هذه المرحلة منه أحيانا حتى يسمع أصواتهم، ويضطر أحيانا للنوم في قنوات الري المنتشرة على ضفاف النهر. وقد مرت عليه وعلى رفاقه أوقات «لا حاجز بينهم وبين الأمريكيين إلا عَرْضُ طاولة»؛[78] حسب عبارة مرافقه عبد الجبار.

روى لي عبد الأحد جهانغير والْ -نقلا عن عبد الصمد- أن الأمريكيين فاجؤوهم مرةً بدخول قنوات الري فركضوا واختبؤوا في جوانب منها حتى سقطت عمامة عبد الصمد وجرفتها المياه. كان عبد الصمد مع بعض رفاقه ولم يكن بينهم الملا عمر، فأصابهم ذعر شديد خشية انتباه الأمريكيين للعمامة التي جرفتها المياه، لأنها تشي بوجود رجال مختفين في القناة، لكن الأمريكيين مروا دون أن يروهم أو يروا العمامة. ويروي عبد الصمد أنهم عندما أرادوا العودة من حيث أتوا -عبر القنوات التي تشبه الأنفاق- وجدوا صعوبة في الخروج منها، حتى علّق أحد رفاقه ضاحكا: «كأن وزننا قد زاد خلال الدقائق الماضية، أو إن الخوف خفّف أوزاننا أثناء الهرب فلم ننتبه لضيق القنوات»!

---

76. Bette Dam, *The Secret Life Of Mulla Omer*, 5.

77. Brian F. Neumann and Colin J. Williams, *The U.S. Army in Afghanistan Operation Enduring Freedom May 2005–January 2009*, (WASHINGTON, D.C: CENTER OF MILITARY HISTORY UNITED STATES ARMY), 2020, 14.

78. Bette Dam, 10.

لقد كان الملا عمر طيلة اختفائه مشرفا على الحركة وموجها لها، ومتابعا لكافة التفاصيل رغم المخاطر الأمنية؛[79] حسب مدير مكتبه سيد طيب آغا. يقول طيب في مقابلتي معه: «لقد كان الأمير أكثر الأمراء – الذين أتوا بعده– فعاليةً ومتابعة للتفاصيل حتى أثناء اختفائه. فلا تُرسل له رسالة إلا رد عليك. نعم، قد يتأخر الرد –بسبب الظروف الأمنية– لكنه سيرد لا محالة». كانت صيغة التواصل بين عمر وأتباعه في هذه المرحلة بإحدى ثلاث طرق؛ فإما أن يكتب بيده ما يودّ إيصاله، أو يسجل بصوته على شريط كاسيت يحمله ثقة، أو يكتفي أحايين برسالة شفهية.

79. ذكرت الصحفية الهولندية بتي دام –نقلا عن عبد الجبار عمري– أن عمر «كان منعزلا عن العالم فترةَ اختفائه كلها، ولا صلة له بأي شيء إطلاقا، ولا دخل له في أي مقاومة أو توجيه. بل كان شغله الوحيد البقاء على قيد الحياة والصلاة وقراءة القرآن والحديث». وهذا غير دقيق حتما كما تبينه مقابلاتنا مع المقربين منه، وكما يثبته الكتاب الذي ألفته حركة طالبان عن حياته.

في فترة اختفاء الملا هذه على ضفاف النهر الصغير، لم تتوقف الجهود الأمريكية والأفغانية عن البحث عنه. فقد وصلت تقارير استخباراتية إلى الرئيس الأفغاني حامد كرزاي تجزم بوجود الملا عمر في منطقة زابل. فأخبر كرزاي الأمريكيين طالبا منهم تكثيف البحث عنه في المنطقة، لكنهم لم يفلعوا لعدم ثقتهم في استخبارات كرزاي. وبعد رفض الأمريكيين؛ قام كرزاي بالمبادرة بتوظيف أطباء وهميين - بإشراف من أخيه أحمد والي كرزاي- لكن جهوده باءت بالفشل[80].

ولم تكن هذه حالة فريدة من توظيف الأطباء والممرضين الوهميين لجمع المعلومات الاستخباراتية عن الملا عمر وغيره من القادة الطالبانيين. فقد درج سكان المنطقة على الأسئلة الغريبة للفرق الطبية، ولحملات التطعيم، مما جعل الأهالي يأخذون منهم موقفا سلبيا معتبرين إياهم غطاءً استخباراتيا، وقاد في النهاية لتوقف معظم السكان عن تطعيم أطفالهم. وقد ذكر لي عضو المكتب السياسي لطالبان بالدوحة عبد الرحيم ثاقب أن الحكومة الأفغانية اتصلت بمكتب طالبان في الدوحة طالبة منهم حث الأهالي على التطعيم، فردوا بأنهم سيفعلون ذلك شريطة أن تتوقف الطواقم الطبية عن الأسئلة الأمنية التحقيقية المستفزة [81]. وما زال العالم يذكر أن هذه الفرق الطبية كانت الغطاء الذي استخدم للوصول لأسامة بن لادن واغتياله في بوت آباد الباكستانية.

80. Bette Dam, 10.

81. مقابلتي مع عبد الرحيم ثاقب يوم 05 أكتوبر/ تشرين الأول 2021.

كان عمر في فترة اختفائه يتابع إذاعة «بي بي سي» البشتونية يوميا، «وكثيرا ما يرسل رسائلَ وتوجيهاتٍ إلى الحركة بناء على خبر سمعه في الإذاعة»؛ حسب سيد طيب آغا. ومع نشاطه ومتابعته للمقاومة وانخراطه في توجيه جهدها الحربي؛ فقد تميزت يومياته -في هذا الخُصّ المتواري في سوريْ- بالهدوء؛ حسب عبد الجبار. فقد كان كعادته صامتا أبدا إلا إذا كان يصلي أو يقرأ القرآن، ولم يستخدم طيلة هذه الفترة هاتفا، ولا اتصل على أي واحدة من زوجاته الأربع ولا أولاده الكثيرين، ولا حتى بأمه. وكان الهاتف الوحيد الذي معه هاتف نوكيا صغير، دون شريحة يسجل فيه القرآن بصوته ليستمع له أحيانا.

ولعل الحادثة التالية التي ذكرها عبد الجبار تنمُّ عن قدرة الملا على التحكم في مشاعره. إذْ يروي أنه كان جالسا معه صبيحةَ الثالث من مايو/ أيار عام 2011، وكان جباري يستمع لإذاعة «صوت أمريكا» بالفارسية وهي تتحدث عن مقتل بن لادن. فسأله عمر الذي لا يتقن الفارسية: «لمَ يكررون اسمَ هذا الرجل»؟ فأخبره بأنهم يتحدثون عن قتله اليوم على أيدي الأمريكيين في باكستان. لكن الملا عمر لم يعلق بحرف واحد، بل ظل صامتا كأنه لم يسمع خبرا!

تنبئ هذه الحادثة عن قدرة هائلة على التحكم في المشاعر وامتلاك النفس في لحظات التضعضع والتزلزل. ولعل العبارة التي وصف بها المؤرخون ثائرا آخر من ثوار خراسان تُذكّر بمزاج الملا عمر وصلابته. فقد وُصف أبو مسلم الخراساني (مقيم دولة بني العباس) بأنه «كان لا يكاد يُقطّب (= ييتئس) في شيء من أحواله، تأتيه الفتوحاتُ العظامُ فلا يظهر عليه السرورُ، وتنزل به الفادحةُ الشديدةُ فلا يُرى مكتئبا! وكان إذا غضب لم يستفزَّهُ الغضبُ».[82]. ويبدو أن

82. شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، (القاهرة: دار الحديث)، 1427هـ2006-م، 6، 220.

مزاج هذا الرجل الأفغاني الصلب كان صدى لذلك المزاج الخراساني القديم.

وهكذا تعاقبت الفصول على الملا عمر في هذا الخُصِّ المطل على ذلك النهر الصغير الهادئ، كما تعاقب عليه كذلك تغيّرُ أمزجة الأفغان ومواقفهم من الأمريكيين وحكومة كرزاي. فابتداءً من عام 2006؛ بدأ كثير من الأفغان يضيق بما رآه من فساد حكومة كرزاي، ووحشية الأمريكيين المريعة بحق المدنيين. فشرع كثيرون في إعلان ولائهم لطالبان، وأمسى القرويون أكثرَ جرأةً على حماية المقاتلين ودعمهم وإيوائهم وتقديم التموين لهم. وفي هذه الفترة لم يعد سرا لدى جيران الملا عمر وعبد الجبار أن ذلك البيت الطيني يسكنه أفراد مهمون من طالبان، مما جعل بعضهم يأتي بالطعام أحيانا إلى المنزل الذي يتوارى فيه الملا عمر[83].

تعاقبت ثماني سنوات على هذا الرجل ذي الأنف المتوسط والشعر الكث، وهو لا يكاد يخرج من خُصه ذلك. كان عبد الجبار يسافر شهريا لزيارة عائلته ويترك الأمير رفقة عبد الصمد، أما هو فلم تلِنْ له قناة في اتباع الإجراءات الأمنية الصارمة. ولعل مواقفه الدينية من الصور والتصوير ساهمت في عدم انكشاف هويته، فلا يستغرب أن يكون الناس العاديون رأوه مرارا دون أن يدور بخلد أي منهم أن هذا هو الرجل الذي يبحث عنه العالم.

لقد كان عمر مؤمنا بعدم حلّيّة التصوير شرعا إلا للضرورة؛ ولذا لا توجد له إلا صور محدودة جدا، أشهرها تلك الصورة الملتقطة له أثناء تنصيبه أميرا للمؤمنين في قندهار، وقد قاطع الصحفيَّ الباكستاني الذي أخذها دون إذن منه. ويروي المبعوث الأممي السابق إلى أفغانستان الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي قصة ذات دلالة في هذا الإطار؛ فقد جاء إلى القنصلية الباكستانية في قندهار للاجتماع مع الملا قبل الغزو الأمريكي

83. من مقابلتي مع عبد الأحد جهانغير والْ السكرتير العسكري للملا عمر.

لأفغانستان، لكنهما ما إن دخلا غرفة الاجتماع حتى خرج عمر بحجة وجود صورة مؤسس باكستان محمد علي جناح (ت 1948م) معلقة عل الجدار. لكن الباكستانيين رفضوا إزاحة الصورة لامتناع ذلك دبلوماسيا. اقترح الإبراهيمي تغطيتها بقماش فرضي الملا بذلك[84].

ولا شك أن لياليَ طوالا مرت على الملا عمر وهو غارق في تأمل سيرته ومسيرته على ضفاف ذلك النهر الهادئ داخل خُصّه الصغير، وأنه وجد الوقت الكافي لتأمل حياته وحياة رفاقه طيلة الأعوام الطويلة الماضية.

84. أحمد زيدان، **صيف أفغانستان الطويل: من الجهاد إلى الإمارة**، (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر)،2021، 365.

لم يتميز الملا عمر بشيء تميزه بالصلابة الشديدة، والإيمان العميق الذي لا تؤثر فيه الأيام والأحداث. فمنذ عرفه رفاقه شابا متحمسا في التاسعة عشرة من عمره لم تفارقه خاصية من تلك الخصائص. فعندما غزا السوفيات أفغانستان في 25 ديسمبر/ كانون الأول عام 1979 التحق الملا عمر بالجهاد ولمّا يُكْملْ عامه العشرين، فاشتهر بالبسالة الميدانية حتى إنه عندما فقد عينه في القتال سرتْ شائعة بين المجاهدين تقول إنه اقتلعها -غيرَ آبهٍ- لحظة إصابتها وواصل الجهاد.

هذه الخصائص النفسية هي التي رشحته للزعامة بين رفاقه؛ فما هو بعالم، ولا بمتحدث آسر، ولا بمنحدر من أسرة حكم. فقد كان والده معلما بسيطا، توفي عنه صغيرا فرباه عمه الذي تزوج أمه كما هي عادة البشتون.

وقد سألتُ شخصياتٍ ممن احتكّوا بالملا عمر -في ظروف مختلفة وأزمانٍ متطاولة- عن أسباب زعامته وسر جاذبيته، فاتفقوا على صفات ردوا إليها أسباب تعلق مرؤوسيه به. فقد قال لي شير محمد عباس نائب رئيس المكتب السياسي لطالبان «إن الأمير كان رجلا عاديا غيرَ مثقف ولا خطيب، لكنه كان تقيا زاهدا، ومجاهدا باسلا. كان يكره المظاهر الزائفة والأبهة، ولذا عاش أيام زعامته دون بروتوكول، كما كان يضيق بالألقاب، فكانت ميزته في إخلاصه وإيمانه وصدقه»[85]. وقد وصفه أبو حفص الموريتاني بالصفات ذاتها في مقابلةٍ لي معه[86].

85. من مقابلتي مع شير محمد عباس ستانكزاي يوم 27 سبتمبر/ أيلول 2021.

86. هو محفوظ ولد الوالد، المشهور بأبي حفص الموريتاني. كان مقربا من الملا عمر. وقد وضعت الولايات

تميز الملا عمر مع صلابته بالرفق واللين مع رفاقه؛ فقد قال لي عبد الأحد جهانغيروالْ: «عملتُ معه ست سنوات ما رأيته يقسو فيها على أحد قط، ولا رأيته غاضبا لأمر شخصي. فما كان يغضب لنفسه أبدا، بل يقتصر غضبه على الأمور التي يراها مخالفة للدين والأخلاق». ثم انفتحت أسارير عبد الأحد وقال: «لقد كان يأكل معنا ولا يتميز عنا بطعام ولا بمجلس، كنا نمزح معه ونلعب ونتشاتم بين يديه وهو لا يزيد على التبسم». كان من الأسباب التي مهدت لزعامة الملا عمر أنه لم يتلوث بما تلوث به معظم قادة الجهاد بعد سقوط كابل وخروج الروس منها؛ فقد دخل زعماء المجاهدين إلى كابل وخاضوا -فيما بينهم- حربا ضروسا دمرتْ المدينةَ وحولتها إلى ركام ابتداء من عام 1992. وفي هذه الفترة -التي تصارع خلالها المجاهدون على الغنائم والسلطة في كابل- وضع الملا عمر سلاحَه، وابتعد منشغلا بتدريس الأطفال في ضواحي قندهار. ولعل عدة مواقف في حياة عمر تبين خاصيتيْ الإيمان والصلابة اللتين تميز بهما. وربما كان أصعب امتحان في حياة الملا عمر هو ذاك الذي واجهه نهايات 2001.

المتحدة 25 مليون دولار على رأسه بعد أحداث 11 من سبتمبر/ أيلول، لكنها تراجعت عن ذلك بعد علمها أنه كان ضد هجمات 11 من سبتمبر.

تسليم بن لادن

أعلنت الولايات المتحدة بُعيد هجمات 11 من سبتمبر / أيلول 2001 أن أسامة بن لادن يقف وراء استهداف أراضيها. وقدمتْ رسالة واضحة على لسان رئيسها جورج بوش الابن تُخيّر كابل بين تسليم بن لادن ومواجهة حرب ماحقة. ويروي مسؤول الإعلام في حركة طالبان عبد الحي مطمئن تفاصيل أصداء الرسالة الأمريكية داخل دوائر الحركة. فيذكر أن الملا عمر اتصل بأسامة بن لادن وطلب منه إدانة الهجمات في بيان، خاصة أن أسامة كان قد تعهد للملا عمر بعدم مهاجمة أي جهة خارجية انطلاقا من أراضي أفغانستان. أصدر أسامة بيانا يدين فيه الهجمات لكنه يعبر عن سعادته بها، وهو ما أزعج الملا عمر[87]. قام الملا –بعد ذلك– بالدعوة لاجتماع مع مستشاريه، طالبا سماعَ آرائهم. ثم كلف لجنة شرعية بدراسة المسألة وتقديم قرار فيها متكئٍ على الشريعة الإسلامية.

وهكذا اجتمع العلماءُ في كابل يومين لمدارسة تسليم بن لادن، ثم خرجوا بقرار مؤلف من نقطتين: ستعرض طالبانُ على بن لادن الخروج طواعية إلى بلد ما، وإذا غزى الأمريكيون البلاد وجب القتال. وما إن صدر القرار حتى بدأت الوفود المطالبةُ بتسليم بن لادن تتوافد على قندهار، لكن عمر ظل متشبثا بقرار الهيئة الاستشارية، مقتنعا بأن لا مسوغ أخلاقيا أو إسلاميا أو إنسانيا لتسليم لاجئ مسلم لقوة كافرة باغية[88].

بعد الحكم الشرعي في أمر بن لادن؛ حاول مقربون من الملا عمر إقناعه

87. Abdul Hai Mutma'in, *Taliban: A Critical History from Within*, (Berlin: Alle Rechte vorbehalten), 2019, 186-187.

88. Abdul Hai Mutma'in, *Taliban: A Critical History from Within*, 187.

بتسليم الرجل حماية لبلده وحكومته، لكنه رفض ذلك رفضا باتا محتجا بأن المروءة والدين يمنعان إسلام اللاجئ. فقد قال في مقابلته مع صوت أمريكا: «أنا لا أستطيع تسليم لاجئ؛ فالمسلم لا يسلّم من لجأ إليه واحتمى به حتى لو كان كافرا. ولو احتمى بك عدوك فيجب عليك حمايته كذلك[89]».

لكن الجهود لم تتوقف؛ فبدأت الوفود تترى على قندهار محاولة إقناع «أمير المؤمنين» بتسليم بن لادن. ومن أشهر الوفود التي وصلت قندهار البعثة السعودية برئاسة رئيس المخابرات السعودية السابق الأمير تركي بن فيصل، فقد وصل الأمير إلى قندهار وجرى لقاء عاصف بينه وبين الملا عمر في مقر الولاية. وصل السعوديون وأخذوا مجالسهم منتظرين دخول الملا عمر، ثم تحلقوا هم ومضيفوهم الأفغان في أطراف المجلس المستطيل، بينما وُضع الشاي الأخضر والفواكه والمكسرات على سفرة وسط المجلس، وانشغل الرجال بتناول الشاي والمكسرات انتظارا لقدوم الملا عمر.

ما إن وصل الملا وتبادل التحية مع الأمير تركي حتى دخل رئيس المخابرات السعودية في الموضوع:

جئت لأتسلم منكم أسامة بن لادن، فهو رجل إرهابي دولي، وقد دبّر قبل أيام هجوما على سفيرنا لديكم أثناء عودته من كابل إلى بيشاور، ثم إنك وعدتني بتسليمه إلي في لقائنا الأول.

كان الملا عمر مائلا جهة الحائط مسندا رأسه قليلا فقال:

أولا أنا لم أعدك بتسليمه، وإنما قلت إنني أتوقع منكم تزويدي بأدلة ملموسة حتى أعرضها على القضاة والمختصين، فإن كانت الأدلة تثبت ضلوعه قمنا بما يجب، وإن كانت غير ذلك عرفنا أن الأمر غير صحيح.

89. https://edition.cnn.com/2015/07/29/opinions/bergen-mullah-omar/index.html (retrieved on 07 November, 2021).

قبل إكمال الملا عمر لحديثه قال تركي:

أنت وعدتني بتسليم هذا الإرهابي، ويجب عليك الوفاء بوعدك، فالمسلم لا ينقض عهده.

عاد الملا متحدثا بهدوء كعادته:

قلت إني لم أعدك بذلك، وهذا الرجل لاجئ عندنا وهو رجل مسلم مصونُ الدم، ولا يجوز لنا تسليم لاجئ عندنا دون وجود أدلة دامغة تبرئنا أمام الله وأمام ضمائرنا..

قاطعه تركي الفيصل محتدا:

أنت وعدتني بتسليمه إلي، ويجب عليك الوفاء بوعدك، أين الوفاء بالعهود؟

اعتدل الملا في جلسته، وصوب نظراته إلى عيني تركي، قائلا بصوت مرتفع والغضبُ بادٍ عليه مع رعدة خفيةٍ في طرف شاربه لا يلاحظها إلا العارفون به:

قلت لك إني لم أعدك بتسليمه؛ فأنا رجل مسلم أفي بالوعد وأعرف معنى العهود. وهذا الرجل الذي تصفه بالإرهابي لا يعرفه الأفغان. فالأفغان يعرفون رجلا جاهد معهم بماله ودمه عندما جاءهم الغزاة السوفيات، فلعلي إن سلّمتُ هذا الرجل سيثور علي الأفغان ويقولون: كيف تسلم رجلا مسلما جاهد معنا وشاركنا ماله ودمه إلى الأمريكيين ليقتلوه؟

التقط الملا أنفاسه قليلا وسط وجوم الجميع وواصل:

ثم إني سائلُك: ألا تستحي من أن تأتي من أرض الحرمين محاولا تسلُّم مواطن من مواطنيك، مطارَدٍ لاجئٍ كيْ تسلمه إلى دولة أجنبية؟ أنت عربي!

والصحابة العرب هم الذين أوصلوا الإسلام إلى أكناف العالم وهم حفاة عراة على ظهور خيولهم. وأنت الآن تأتي من بلادك تطلب تسليم هذا المسلم لتسلمه إلى الكفار! أنت لستَ ممن يستحق النسبة لأولئك العرب المغاوير الفرسان، كيف يسمح لي ضميري أن أربط يديْ أسامة وأيادي زوجاته وأطفاله وأسلمهم لك؟ هذا ما لا يرضاه ديني ولا إيماني ولا مروءتي ولا عادات قومي، أنتم ترتعدون خوفا من الأمريكيين وليست عندكم نخوة! لستم أحفاد الصحابة قطعا.

ما إنْ نطق الملا عمر العبارة الأخيرة حتى وقف تركي:

لقد أهنتني وطعنت في نسبي وأهنت عائلتي!

ثم رفع يده مودعا وخرج[90].

ولم تفلح كل الوساطات اللاحقة في تسليم الملا عمر لضيفه رغم المخاطر المحدقة، وإخلالِ أسامة بن لادن بشروط الإقامة التي تعهد بها سابقا لطالبان. لقد كان عمر مقتنعا بوجوب حماية أسامة من منطلق الدين والفروسية، وكان راضيا بأن يفقد سلطانه وحكومته مقابل الوقوف عند ما يراه حقا وأخلاقا. ولم ينقل عنه أي ممن عايشوه -في سنوات اختبائه الطويلة- ندمَه على ذلك القرار حتى وافاه الأجل.

90. اعتدمت في هذه التفاصيل كلها على مقابلتي مع عبد الأحد جهانغير والْ الذي كان موجودا طيلة الجلسة. وقد أجريت معه المقابلة 05 أكتوبر/ تشرين الأول، 2021. كما توجد بعض تفاصيل أخرى في كتاب عبد الحي مطمئن السابق ذكره. أما رواية تركي الفيصل للجلسة فموجودة على يوتيوب على الرابط التالي: (https: //www.youtube.com /watch?v=pG1R8ee6oAE)

ربما كان من أسباب عدم الكشف عن مكان الملا عمر ثقةُ الاستخبارات الأمريكية بفراره إلى باكستان؛ إذ كانت واشنطن مقتنعة بأن الرجل محمي في منزل تابع للاستخبارات الباكستانية. بل إن أحد كتاب مجلة «نيويوركر» قام بتحقيق صحفي قبل عام واحد من وفاة الملا عمر، تحدث فيه مع اثنيْ عشر مسؤولا أمنيا أمريكيا فأجمعوا كلهم على أن الملا عمر «تحت ما يشبه الإقامة الجبرية في باكستان»[91]. بل إن القدرة الفائقة لطالبان في إخفاء زعيمها برزت في مواصلة الأمريكيين الحديث عن وجوده في باكستان مدة عامين بعد وفاته. فعندما أعلنت الحكومة الأفغانية وفاته؛ صرح مدير وكالة الاستخبارات المركزية حينها ديفيد بترويس بأنه لا يشك في أن الملا توفي بباكستان، وأنه كان موجودا بمنطقة كراتشي، ويرجح أن يكون توفي بأحد مستشفياتها[92].

ومن الطريف أن الحركة لم تنجح فقط في إخفاء الملا عمر حيا عن أعدائه، بل نجحت كذلك في إخفاء وفاته عن أعدائه وأتباعه معا. فعندما توفي الرجل اجتمع القادة وناقشوا إعلان وفاته، ثم رأوا أن يبقوا الخبر سرا مما تسبب في تململ داخلي قوي، قاد لانشقاقات محدودة في قيادة الحركة[93].

لكن الحقيقة اليقينية اليوم -المتحصلة من مقابلات مع المقربين من

91. https://www.newyorker.com/magazine/2012/01/23/looking-for-mullah-omar

92. يمكن الاستماع لتصريح ديفيد بترويس على الرابط التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=l76Qolyyx4k
(أخذ الرابط يوم 01 نوفمبر/ تشرين الثاني 2021)

93. من مقابلتي مع أحد زعماء الحركة فضل عدم نسبة الخبر إليه.

الرجل، ومما أعلنته الحركة واقتنعت به واشنطن والحكومة الأفغانية السابقة- هي أن الرجل لم يطأ أرض باكستان طيلة فترة اختفائه، ولا قبِل التفكير في الذهاب إليها لحظة. فلم يكن يثق في باكستان، وكان حريصا -أيام سلطانه- على الابتعاد عنها، حساسا من تأثيرها على الشأن الأفغاني. وهكذا ظل ذلك الرجل لغزا لم تستطع واشنطن ولا عملاؤها معرفة شيء عنه حتى بعد عامين من وفاته،[94] أحرى أن يعلموا مكان وجوده إبان اختفائه الطويل.[95]

في مطلع عام 2013 بدأت صحة الملا عمر تتدهور؛ فبدأ يكح كحة متواصلة، كما ظهرت بثور على أماكن مختلفة من جسده الذي بدأ يذوي من كثرة الجلوس داخل الأماكن المغلقة[96]. اقترح عبد الصمد وعبد الأحد وعبد الجبار مرارا على الملا أن يصحبهم إلى مستشفيات داخل باكستان لكنه رفض رفضا، ثم أسرَّ لعبد الجبار بأنه واثق من أن هذا هو مرض موته، وفي 25 من إبريل/ نيسان 2013 توفي الملا محمد عمر.

قام عبد الجبار والأخوان عبد الصمد وعبد الأحد بدفنه ليلا في مقبرة قريبة من مكان وفاته دون إشعار أحد. ثم تحرك عبد الجبار مسرعا إلى مدينة كويتا ليخبر زعماء الحركة، حاملا نبأ رحيل واحد من أكثر الشخصيات تأثيرا في تاريخ أفغانستان المعاصر. ففي ذلك المساء، وبعيدا عن أنظار العالم ووكالات الأنباء؛ سقط حَجرٌ آخر من أحجار أرض خراسان.. توفي الملا محمد عمر.

---

94. https://www.nytimes.com/2015/07/31/world/asia/mullah-muhammad-omar-taliban-leader-afghanistan-dies.html

95. https://www.nytimes.com/2015/07/31/us/politics/mullah-muhammad-omars-life-ends-with-little-clarity.html?action=click&module=RelatedCoverage&pgtype=Article&region=Footer

96. البثور ذكرها لي سكرتيره العسكري جهانغير والْ نقلا عن عبد الصمد.

الفصل الثالث: العمائم المظفَّرة: عودة طالبان

ليلة البارود

«لو لم يبق للإسلام في الدينا عرقٌ ينبِض، لرأيتَ عرقَه بين سكان جبال الهملايا والهندوكوش نابضا، وعزمَه هناك ناهضا.»

شكيب أرسلان

بدا يوم الأحد 15 من أغسطس/ آب 2021 يوما عاديا كغيره من أيام مدينة كابل؛ فهو اليوم الثاني من أيام العمل بعد عطلة نهاية الأسبوع يوميْ الخميس والجمعة. ضجت شوارع حي «بولي جرْخي» الواقع شرقي كابل بالحركة. فبدتْ الشوارع مليئة بسيارات الأجرة، والباعة المتجولين المنادين على بضائعهم، وظهرت في الأفق جبال كابل ساكنةً كأنها الجزء الوحيد الثابت في هذه المدينة التي لم تعرف الاستقرار منذ 41 عاما.

اندفعت دراجة وسط الشارع الرئيسي في بولي جرخي مسرعة وعلى متنها شاب حنطي اللون معتدل الجسم، يرتدي ملابس أفغانية شبابيةً أنيقة: قميص وسروال أزرقان، وصدرية داكنة. كانت عيناه السوداوان تحدقان في جنبات الشوارع تتفحصان كل شيء كعينيْ صقر من صقور الجنوب الأفغاني. يتأمل الأزقة الضيقة، ويتفحص الواقفين أمام المقرات الحكومية، ويندس بين كل تجمع لافت ليقف على طبيعته. كلما أسرع أو لفّ لفةً سريعة بدراجته سقطت سماعة الهاتف المندسة في أذنه اليسرى. تجاوز السوق المركزي للحي، ورفع السرعة طالعا مع المساكن المتسلقة فوق الجبل، انهمرت الدموع من عينه حتى اضطربت رؤيته للأشياء وللمدينة البادية في

الأفق. أوقف دراجته وسمح لعينيه بالانهيار، ثم رفع يديه عن مقود الدراجة ووضعهما على جبهته وأجهش باكيا.

كانت السماعة في أذنه اليسرى تخبره بتحركات مقاتلي حركة طالبان، وتقدمهم للسيطرة على كابل. لم يستطع الرد على أميره الذي يوجه له الأوامر؛ فقد كانت عيناه تَسُحّان، وشفتاه تختلجان. حاول التماسك مؤنّباً نفسه: لِمَ أنهار في هذه اللحظة ولَمْ أنْهَرْ قَطُّ رغم كل ما رأيت؟ وقف ملتفتا إلى أحياء كابل من فوق الجبل فانتفضتْ صورةٌ من ذاكرته. كان ذلك عام 2014، قبل سبع سنوات.

دخل محمد أعظم قرية هادئة بمنطقة تَغابْ رفقة أحد عشر رجلا من مقاتلي حركة طالبان، بينهم خاله وابن خاله وتسعة آخرون. دخلوا القرية الوادعة فاستقبلهم رب المنزل المتعاطف معهم، وتحلقوا حول مائدة العشاء وهم يخططون للإغارة على نقاط أمريكية. بدا الجو هادئا ولطيفا، ودارت كؤوس الشاي الأخضر وامتدت الأيدي إلى مائدة الخبز والجبنة البلدية والأرز واللحم. كان هو وابن خاله أصغر الحضور، كان في عامه السابع عشر.

اندفع خاله ورفاقه الكبار يتحدثون عن قصص الجهاد التي خاضوها وعن معاركهم مع الأمريكيين، لكن صوتا سُمع فجأة ملأ المكان رعبا. وقفتْ الأيدي في الهواء بكؤوس الشاي دون أن تصل الأفواه، وأنصت الجميع للصوت. لا شك أنها طائرة تجسس أمريكية؛ فقد أكسبتهم خبرة الكر والفر والقصف حاسة دقيقة للتمييز بين أصناف الطائرات، ثم ما لبثوا أن سمعوا صوت طائرة أباتشي. كانت التعليمات واضحة في مثل هذه الظروف، يجب أن يتفرقوا فورا ويختبئوا، فالأمريكيون سينزلون للاشتباك المباشر معهم وأسْرهم. قفز الرجال كلٌّ في طريق، قفز بعضهم من الحائط وبدأ إطلاق النار.

اندفع محمد أعظم راكضا خارج الباب فلمح كومةَ قشٍّ ضخمةً في فناء الحائط مخصصةً لعلف الأغنام فتوارى فيها. وجد نفسه داخل القش وهو يتذكر تعليمات قادته؛ عندما تختبئ عن الأمريكي حاولْ ألا تتنفس قدر المستطاع، اكتم أنفاسك واحبسها جيدا. لم يعد محمد يرى شيئا لكنه يسمع بوضوح، الجنود يصرخون، وإطلاق النار يصّاعد، والنساء يولولنَ باحثاتٍ عن أطفالهن. طال الوقت ولم يتبين له أي شيء، وبعد وقت سمع إطلاق نار متقطعا لكن الجلبة من بعيد لم تنقطع. هل يخرج؟ لعله إن أخرج رأسه سيلمحه أمريكي فيقنصه أو يأسره ليأخذه إلى باغرام أو غوانتانامو أو أحد سجون حكومة كابل.

بذل قصارى جهده ليتنفس بهدوء. بعد ساعات فتح ثغرة في القش مما يلي الحائط ووضع منخريه فيها حتى لا يختنق. لا يدري هل ما زال الأمريكيون هنا أم ذهبوا. عاش رعبا هائلا؛ فقد كان يخاف من الاعتقال أكثر من خوفه من الموت. حدث نفسه: لو أنني متأكد من أنني إذا خرجت أشتبك معهم ولو بالأيدي ثم أقتَل لخرجت، سأكون في جنان الخلد بعد دقائق، لكنني أخشى الاعتقال.

مرت ساعات كان بعضها ما بين اليقظة والنوم. طلع النهار ثم انتصف. بدأ يشعر بعطش شديد. كان لا يعرف ما الذي يجري؛ فالأمريكيون أحيانا إذا نزلوا يقيمون بالمكان يوما كاملا، وأحيانا يشتبكون ويخرجون في ساعة. كان حائرا.

اشتد العطش فبدأ يحاول إخراج رأسه من القش. لم ير أي أمريكي. رأى الحُفَرَ منتشرة في المكان، والنساء يقمن بالتنظيف، وأهل القرية يأتون ويذهبون للمساعدة. مشى خطوات حتى وصل وسط المنزل. تلقته ربة البيت:

أنت حي؟ حمدا لله!

فتح فمه المتيبس عطشا:

هل استشهد كل الإخوة؟

نعم.. لكن لم نجد جثة خالك. ابن خالك استشهد وحُمل إلى قريتكم ليدفن، لكننا ما زلنا نبحث عن جثة خالك.

ثم رفعت المرأة يدها وغطت وجهها:

- كالعادة، قام الأمريكيون برش وجوه الشهداء بالأسيد ليشوهوها.. لكن وجوههم ليست شائهة عند ربهم.

- أين جثامين الشهداء؟

- دفنوا كلهم إلا خالك نبحث عنه.

جلس محمد أعظم على عتبة الباب مرهقا متعبا مُلْتاعَ الفؤاد. بعد لحظات اقتربت السيدة حاملةً جرة ماء، فشرب وغسل وجهه ثم وقف ونفض عن ملابسه القشَّ وطلب خبزا. أكل قطعة واندفع بين أزقة الحي منطلقا إلى قريته. اندفع وسط المروج الخضراء وهو يتذكر آخر أحاديثه البارحة مع رفاقه، لكن ذهنه كان مشغولا بالتفكير في صديقه ابن خاله، تذكر ما قالته له السيدة عنه من أن صاروخا ضرب وجهه حتى ذهب نصفه! كيف سأعيش دون صديقي؟ كيف استشهد صديقي وبقيت؟ هل أنا خير منه؟ قطعا لا. اندفع وسط الحقول وهو ينظر يمنة ويسرة. يعرف هذه المناطق جيدًا ويعرف كل الطرق الالتفافية فيها. كان يلبس ملابس عادية ولا يستطيع أحد تمييزَه عن أي أفغاني عادي لا علاقة له بمقاومة الأمريكيين. تمتد الحقول أمام ناظريه المتعَبَيْن وهو يفكر: هل سيدرك دفن صديقه؟ تذكر طفولتهما ولعبهما معا، وتذكر ابتسامته في لحظات الاشتباك مع العدو.

بعد 55 دقيقة من السير وصل قريته. كان أول ما لمح جماعة من الرجال

راجعين من جهة المقبرة. انتابته حسرة فوات دفن صديقه. سلم سريعا على الرجال الحَزانى وخالفهم إلى المقبرة الواقعة في سفح جبل جميل. مشى خطوات ثم دخل المقبرة وتوجه لأحدث قبر فيها ووقف عليه.

تحت هذا الثرى يرقد صديقي! أدار وجهه إلى الجبال المحيطة والقرية الوادعة والقبور الجاثمة. شعر بأن الزمن توقف. كيف يتحول إنسان كان مليئا بالمشاعر والرغبات والطموحات ومحاولات تغيير العالم إلى جثة هامدة تحت الأرض؟!

جلس عند رأس القبر وبدأ يبكي، كان يبكي بحرقة وأسى، وازداد شعوره بالأسى لأنه يبكي؛ فهل يليق بالفارس أن يبكي؟ أليس البكاء للنساء الجالسات في البيوت بعيدا عن ساحات الوغى؟ هل يليق بمقاتل أفغاني يصارع 54 دولة أن يبكي لفقدان رفيقه أو خاله؟

لكن الدموع كانت تنثال كلما حاول كفكفتها. مدّ يدا مرتعشة وقبض قبضة من ثرى قبر صديقه، ثم قال: قتلك الأمريكيون بين ديار أهلك! هل يظنون أنهم كلما قتلوا شخصا ربحوا شبرا من أرضنا؟! هذه الأرض التي تكاد وديانها ووهادها وتلاعها تفيض بدم الغزاة. هذه الأرض التي كان عليها الصوفي الفارس أبو القاسم القشيري، والسلطان الفاتح محمود الغزنوي. إذا كانوا يظنون أنهم سيقتلعون ديننا وثقافتنا؛ فعليهم أن يعلموا أن اقتلاع هذه الجبال الشمَّاء أسهل من ذلك.

مرت ساعة وهو جالس لا يتحرك. لا تسمع أذناه إلا حفيف الأشجار وأصواتا متقطعة آتية من جهة القرية. رفع بصره في الأفق فمرتْ صقور في الهواء فأتبعها طرفَه، رمقها وهي تبتعد متواريةً خلف الغمام المنساب بين الجبال. إلى متى أنا جالس هنا؟

نفض طرف ثوبه ووقف. انحدر مع الربوة متجها إلى القرية. هذا صديق روحي وابن خالي ورفيق جهادي قتله الأمريكيون، وذاك أبي قتله الفرنسيون قبل؛ فلماذا يأتون إلى قرانا ليقتلونا؟

تسارعت خطاه وهو يرى نساء قريته مجتمعاتٍ في أحد البيوت الواقعة شرقي القرية. ابتعد عن البيت حتى لا يُرى آثار الدموع في عينيه. فمتى كان الفارس يبكي؟ أسرع منحدرا مع الطريق المغبرّ الذي يشق البيوت الطينية للقرية، وهو يتذكر بيتا كان أحد قادته الميدانيين يُترجمه له من العربية دوماً:

مَعاذَ الإلهِ أن تنوحَ نساؤُنا * على هالكٍ.. أَوْ أَنْ نَضِجَّ من القتلِ!

شخصت ابتسامة صديقه في خياله فاعترتْه قشعريرةٌ وهو يعض شفته السفلى مفكرا في أول لقاء سيجمعه مع الأمريكيين. تذكر خاله الذي لم توجد جثته بعد. هل أسره الأمريكيون؟ وهل علم بمقتل ابنه؟ ترى أين هو الآن؟ توسط القرية محاولا ألا يلتفت يمينا ولا يسارا حتى لا يرى أحد عينيه بوضوح.

استيقظ محمد أعظم من ذكرياته واندفعت دراجته النارية تشق الطرق الملتوية والنتوءات الجبلية شرقي كابل. تسرع الدراجة وسط الجموع المشغولة بتتبع الأخبار التي تتحدث عن عنوان واحد: طالبان على أبواب كابل. تجاوز محمد أعظم منطقة «سوق مركزي» فلاحظ كثرة الناس داخل السوق رغم الأسئلة الحيرى على الوجوه. كانت الجماجم مسكونة بأسئلة حارقة: أيُعقل أن يقع هذا بهذه السرعة؟ أين أكثر من ثلاثمائة ألف جندي أفغاني صنعتهم الولايات المتحدة على عينيها عَقدين كاملين؟ أين الرئيس أشرف غني وخطابُه الذي ألقى قبل ساعات متعهدا بدحر طالبان؟ أين نائبه أمر الله صالح المتعهدُ بحماية البلاد من طالبان؟ هل انتقض غزَلُ الولايات المتحدة عشرين عاما في أسبوعين؟

وصلت الدراجة الحمراء إلى المنطقة الخضراء بحي الوزير أكبر خان. تتميز المنطقة بحيطانها الخرسانية الطويلة التي سهِر الأمريكيون على تشييدها وتحصينها طويلا. نظر أعظم إلى الحيطان ثم تمتم -والعَبرة تخنقه- تاليا الآية الكريمة: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾[97]. انتبه وسط كل هذا إلى بعض الناس منشغلين بإغلاق دكاكينهم. كانت أيديهم تُحكِم إغلاقَ الأقفال وهم فاغرون أفواهَهم خوفا؛ فهذه مدينة تحتفظ بذاكرة مرعبة عن أيام استيلاء المجاهدين على كابل وتشظيها بين الفصائل المتنازعة. تأمل الأوجه المتوجسة بينما كان هو يشعر بأمان لم يجربه منذ ولادته عام 1997، قبل دخول الأمريكيين إلى كابل بأربع سنوات. لم يشعر بطمأنينة وحرية كالتي يشعر بها هذا اليوم، 15 من أغسطس/ آب 2021م. رنَّ هاتفه بعدما تجاوز السفارتين الكندية والفرنسية على الشارع رقم 15. سمع وسوسةَ مسؤوله من المِلْقان المندسِّ في أذنه:

التعليمات واضحة يا محمد. لقد دخل المجاهدون إلى المدينة رغم أنهم ما كانوا يودون ذلك. دخلوا لأن بعض العصابات بدأت تنهب بعدما علمتْ بهروب الرئيس وتفكك عصابات الجيش والشرطة. مسؤوليتنا الآن هي تأمين الناس.

هدأ السرعة ليخفف وقع الرياح وليسمع صوت رئيسه واضحا:

أنت ورفاقك مكلفون بنقل المجاهدين إلى النقاط الحساسة لحراستها. هم لا يعرفون المدينة، كثير منهم لم يدخل كابل قط.

عُلم!

تجاوز السفارة الأمريكية فاستيقظت صورة ابن خاله في ذاكرته؛ ماذا

97. سورة الحشر، 14.

لو كان معي ليعيش هذه اللحظات؟! سفارة الاستكبار العالمي خالية ليس أمامها حارس واحد؛ من كان يستطيع العبور من هنا؟ تجمدت أفكاره وهو يرى مجموعة من الرجال المسلحين بعمائمهم الطويلة وملابسهم القروية آتين من نهاية الشارع. لوّح بيده اليسرى وتجاوزهم. عليه الوصول إلى الدوار 15 ليجد المجموعة التي سيوصلها إلى أحد الأسواق، ثم ينتظر أمرا بإيصال مجموعات أخرى إلى عدة نقاط حساسة.

أسرع مع الشارع الفوضوي ذي الاتجاهين، يرمق المارة المتوجسين الذين لا يعرفون بالضبط ما الذي يقع؟ فكّر في التصريحات الأخيرة التي سمعها عبر الراديو من أشرف غني وأمر الله صالح؛ أين كل ذلك؟ فكّر في أن الفرق شاسع بين من يقاتل عن شرفه ووطنه لتكون كلمة الله هي العليا، وبين من يقاتل ليتسلم راتبا! خطر له أن الإنسان إذا كان يقاتل ليتسلم راتبا فإن من الحمق أن يقاتل باستماتةٍ حتى لا يُقتل قبل قبض راتبه.

أحس نفسه في ملحمة كونية كبرى. شعر بكونه مجاهدا من ملايين المقاتلين الذين يسيرون على خُطى خالد بن الوليد وقُتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والملا عمر. ملأ صدره بالرياح ورفع طرفه إلى السماء وهو يشعر بنشوة وانشراح. تذكر صبيحة مقتل والده على أيدي الفرنسيين بمنطقة تَغابْ. ثم اختفت صورة والده وحلت محلها صورة أمه، تلك المرأة البشتونية الصلبة التي تستقبل المصائب بقلب جَلْد وروح وثابة، تلك الأم التي تنظر إلى الموت في الميدان نظرة الفرسان إليه، لا نظرة المرأة العادية الخائفة. كيف لا؟ وقد تعلمت من جدتها أن الرجل يقبح به أن يموت تخمة، ويحسن به أن يموت في ميادين القراع والنزال.

وصل الدوار 15 فرأى أربع سيارات مليئة بالمقاتلين ذوي الشعور المنسدلة والعمائم الطويلة. كانت وجوههم مرهَقةً وشفاههم ذاوية، لكن

عيونهم طافحة بالبِشر والحياة والتوثب. شباب تتراوح أعمارهم بين 18 و22 عاما. وُلد معظمهم بعد دخول القوات الأمريكية إلى أفغانستان، وولد بعضهم قبيل دخولها بعام أو عامين. قال في نفسه: إذا كان الجيل الذي ربته الولايات المتحدة هو الذي يقوم بطردها اليوم؛ فما الذي جنته تلك القوة الكافرة الغاشمة؟

نزل عن دراجته وترجَّل قاصدا الرجل ذا اللحية الكثّة والعمامة البيضاء الطويلة، المتشح ببندقية كلاشنكوف. تحادثا سريعا ثم عاد إلى دراجته وبدأ يقود الموكب. كانت وراءه عشر سيارات محملة بالرجال المسلحين؛ يتوشّح معظمهم الأسلحةَ الخفيفة وقاذفات الآر بي جي.

تقدم محمد أعظم الموكب وهو في حالة نفسية متوترة: ماذا لو رأى والدي هذا اليوم؟ ماذا لو علم والدي أن دمه لم يذهب هدرا؟ كيف لو علم أن الفرنسيين الذي خرجوا من ديارهم البعيدة وأتوا إليه ليقتلوه في قريته لم يحققوا أي شيء؟ ها هم المجاهدون يعودون تحت بصر العالم إلى قصر الرئاسة! ها هو ابنك يوزع المقاتلين على سفارات الناتو ليؤمنوها لهم بعد عجزهم عن تأمينها! مرت ساعات من العمل المرهق، والتوزيع المحكَم للمقاتلين على مقرات السفارات والهيئات الدولية والأسواق ومؤسسات الدولة.

في الساعات المتأخرة من المساء جلس محمد يتأمل الصور التي ظهرت على كل تلفاز نقلا عن قناة الجزيرة. كان جالسا في مقهى تتربع في ركنه شاشة تلفزيونية كبيرة. كان تلفزيون «طلوع نيوز» المحلية ينقل صورا مباشرة من القصر الرئاسي نقلا عن قناة الجزيرة. ظهر مراسل الجزيرة الأفغاني محمد حميد الله شاه على الشاشة رفقةَ قادة من طالبان وهم يدخلون القصر الرئاسي آمنين!

عدة رجال مسلحين طوال اللُّحى معتجرين بالعمائم، والمراسل بينهم يتحدث بعربية لا يفهمها محمد جيدا، لكن الصورة كافية. كانوا يتقدمون

إلى داخل القصر. لاحظ في الصورة وجود رجل حليق يلبس ملابس غربية بينهم. كان الرجل الحليق أحدَ مساعدي الرئيس الهارب أشرف غني. قال ببشتونية واضحة:

جئت لأسلمكم مفاتيح القصر.

تحركت الكاميرا داخل القصر. أشار المراسل إلى المجلس الأنيق المنضّد في طرف الصالة الواسعة:

هناك كان يجلس الرئيس لاستقبال الضيوف الأجانب.

ثم رأى محمد أعظم مقاتلي طالبان يجلسون على الأرائك ذاتها التي كان يجلس عليها الأمريكيون وأشرف غني لينسقوا قتل والده وابن خاله. ثم ظهر على الشاشة شاب أبيض ملتح معتمّ. وضع سلاحه أمامه وبدأ يقرأ سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وارتفع التكبير من أطراف القاعة. تجمدت عيناه السوداوان على شاشة التلفاز، وسكنتْ يده في الهواء ممسكة بكوب الشاي. لم تعد يده للطاولة ولا ارتفعت جهة فمه. مر نحو دقيقة. أفاق وتلفت في حنايا المقهى فلاحظ الأوجه الحيرى، ولمح رجلا خمسينيا حاد الملامح يتأمله. أرجع الكوب للطاولة وبدأ يتفرس الأوجه المختلفة التي تحيط به. وجوه تتراقص طربا بالحدث المتكشف على الشاشة، وأخرى صامتة صمت المفاجأة والأسى.

ثم أحس بإبهام يده ترتجف، وبخدر في ركبتيْه، مع رغبة عارمة في الاحتفال ومعانقة المنتصرين. وقف دفعة واحدة حتى اصطدمت ركبته بطرف الطاولة. أخذ أربعمائة «أفغاني» ووضعها على الطاولة وخرج، ثلاثمائة للوجبة والشاي، والبقية بقشيش انتصار المجاهدين. خرج من باب المطعم

فنفحته نسمات أغسطس/ آب.. وسمع من بعيد أصوات إطلاق الرصاص احتفاءً بفتح كابل.

اعتدل على دراجته التي بدأت تطوي الطريق طياً وهو يستعيد الصور الأولى من حياته. كان ذلك أواخر 2001، يوم كان في عامه الرابع. سمع والدَه وأمه يومها يتحدثان -همسا وخِيفةً- عن القصف الذي بدأته الولايات المتحدة على كل شبر من أرض أفغانستان. يوم كان لا يمر يوم دون خبر اعتقال أو قتل أو احتلال. زاد سرعة الدراجة مالئا رئتيه من هواء كابل. كابل التي يحكمها الحماةُ مرة أخرى، ويغادرها الغزاة!

غير أن لسكان كابل هموما أخرى غير هموم الغزاة والحماة.

التوجس من المرأة

«شَعر المرأة طويل، لكن لسانَها أطولُ!».

مثل بشتوني

استيقظتْ كابل صبيحة الثالث والعشرين من أغسطس/ آب 2021م على رياح رُخاء تحمل ريّا الجبال الشاهقة التي تحتضن المدينة. رياح تحمل شعورا غَسَقياً غريبا بأن حقبةً قد انتهت، وأخرى توشك على الانبلاج. إحساس غريب لا يعرفه إلا من عاش لحظات التحولات الكبرى في أعمار الأمم، ولامس المنعرجات الحادة في حياة الشعوب. تلك الصباحات التي يعيشها سكان مدينة ما مرةً واحدة في أعمارهم. يوم ينقشع نظام ويحل آخر. لحظة توقُّفِ كل شيء، وابتداء كل شيء.

خرجتُ من فندق «نجمة كابل» على تمام الثامنة صباحا فرأيت السائق تاج غل واقفا ينتظرني. يتميز تاج غل عن بقية سائقي مكتب الجزيرة بمنظره الأصيل الذي يذكرك دوما بأنك في أفغانستان. لحية بيضاء جليلة، ممشطة دوما، ووجه طلْق أبيض باسم، وأسنانٌ قوية تعطيه منظرا شبابيا رغم تجاوزه الستين. نادى بحفاوته المعتادة:

تفضل يا أستاذ!

جلست في المقعد الخلفي بجانب المصور ذبيح الله كريمي. خرجنا من الباب المؤمَّن بطبقات من الخرسانة، والأبواب الحديدية الطويلة السميكة، وفقا لمعايير التأمين الأمريكية التي تعايشتْ معها كابل عشرين حولا. فكرت في طبيعة ما ينتظرني. فنحن ذاهبون للقاء فتاة هزارية كانت تعمل

في التلفزيون الرسمي الحكومي ثم مُنعت من العمل بعد مجيء طالبان لأنها امرأة؛ ذاك ما وصلني من معلومات.

كنت مشغول الذهن بصحة الخبر الذي عندي. فهل سيعود الطالبانيون للمنهج ذاته -الذي طبقوه حين حكموا ما بين 2001-1996م- من ضيق بالمرأة في المجال العام، واستثقالٍ للآخر المخالف في التفاصيل؟ ما إنْ خرجنا من باحة الفندق حتى رأيت الشمس المشرقة تنعكس على وجوه الأفغان المرهقين المحتشدين منذ الخامسة فجرا أمام البنك الوطني الواقع قبالة بوابة الفندق. مئات الشبان والفتيات المتكدسين أمام باب البنك، ومسحلون طالبانيون يذهبون ويأتون لتنظيم الطابور الطويل. التفتُ إلى ذبيح:

لماذا يحتشدون؟

لأنه لا يسمح لأحد بسحب أكثر من مائتي دولار.. والناس يحتاجون مالا للعيش.

عادت بي ذاكرتي إلى لحظات سقوط معمر القذافي وزين العابدين بن علي عام 2011، يوم كنتُ في ليبيا وتونس، وعايشت نفس الصور. تجاوزنا البابَ واعتدلنا على الطريق الرئيسي.

بدأت السيارة تتقدم جهة الجانب الغربي من العاصمة حيث تسكن أغلبية من الهزارة الشيعة البالغة نسبتهم ما بين 9 إلى 15٪ من سكان أفغانستان. وبعد نصف ساعة من الاتصال مع الفتاة صدّيقة فرامرزْ كنا في منطقتها دون التمكن من تحديد مكانها. قلت متضايقا لذبيح:

يا أخي، قل لها أن ترسل لك الموقع على الواتس... نحن في عصر لا يُحتاج فيه إلى الوصف التقليدي!

زمّ ذبيح شفتيه:

يا أخي! هي مختفية عن الأنظار وخائفة، ولا أستطيع طلب موقعها!

أحسست بالذنب بعد جوابه. وبعد نحو خمس دقائق وقفنا أمام منزل من طابقين. كان مميزا بألوانه المنوعة وصبغه المزاوج بين الأخضر والأصفر، وبهدوء مدخله المعتم. ترجلتُ مع ذبيح بينما أوقف تاج غل سيارته على طرف الشارع ينتظرنا. دققنا الباب ثم سمعنا صريره منفتحا، ولاح وجه صدّيقة من ورائه.

فتاة نحيفة بيضاء ذات ملامح آسيوية أصيلة كمعظم أقلية الهزارة الشيعية. كانت في بنطال أسود وقميص أبيض سابغ مخطط خطوطا سوداً مستطيلة. قادتنا إلى بيت مؤلف من غرفتين وحمام. يوجد مكتب في الغرفة الواقعة يمينا، بينما تتراص مراتب للجلوس في الغرفة الثانية على اليسار. قلت لذبيح:

المكان مظلم وغير مناسب للتصوير..

قلت لك إنها متخفية.. ومع ذلك سنحاول ترتيب الأمور.

جلست على الأريكة المقابلة لمكتبها، وجلست هي وراء مكتبها. ثم بدأت أحادثها بفارسيتي المتواضعة:

كيف الأمور؟ أتمنى أن تكوني بخير!

فركتْ يديها مديرةً عينيها في أنحاء الشقة:

نعم.. نعم، أنا بخير. وكل شيء سيكون على ما يرام. لقد تعودنا على التغيير.

انشغل ذبيح بترتيب الكاميرا، والبحث عن المصابيح الكهربائية التي يمكن الاستفادة منها لتجويد الإضاءة قبل التصوير. وانشغلت بالحديث

معها عن مهنة الصحافة في أفغانستان ومخاوفها. كنت أفهم كثيرا مما تقوله ويغيب عني الكثير.

تأملتُ الجدران العارية إلا من جوائز وتقديراتٍ من مؤسسات غربية. لاحظت صديقة تحديقي في الشهادات فوقفت نشطةً مادّةً يديها جهة اللوحات:

هذه شهادة الشجاعة الصحفية!

ثم سكتت كأنما باغتتها غصة، وعادت إلى كرسيها. كانت عيناها تدوران، وأصابعُها تتراقص على طرف الطاولة. ثم لفتني كتاب أخضر موضوع على طاولتها قرب هاتفها المحمول. كتاب متوسط مكتوب عليه بخط أخضر «صبر سنك». مددت سبابتي جهة الكتاب:

تقرئين كتابا عن صبر الحجر.. ما موضوعه؟

أخذتْ الكتاب بطرف أناملها الدقيقة وقالت وهي تتصفحه دون أن تنظر إلي:

ألم تسمع به؟ لقد أنجِز عنه فيلم، وهو كتاب مشهور في المجتمع الأفغاني. هذا كتاب عن حياة النساء تحت حكم طالبان الماضي ما بين 1996 – 2001م.

كانت صديقة تتحدث بحرقة عن خوفها من طالبان. تضيّق عينيها حتى يُخيل إليّ أن الدموع قد تنزل، ثم تشرح مخاوفها من طردهم لها من عملها، ومن أن يعاملوها كما عاملوا أمها من قبل. قاطعتها:

ماذا فعلوا بأمك من قبل؟

قبل ولادتي كانت أمي تسير في أحد الشوارع بكابل فأوقفتها سيارة شرطتهم. سألوها لم لا تغطين وجهك وأقدامك؟ كانت أمي لا تفهم

البشتونية وهم لا يفهمون الفارسية. وفي النهاية غضبوا وعنفوها وهددوها بالعقاب إذا عادت للمشي دون نقاب.

كانت صديقة مسترسلة في حديثها بينما هجمت عليّ أسئلة يسألها أي صحفي مهما كانت علاقته بموضوع عمله: هل كل هذا الخوف من طالبان مبرر؟ أم هو الضخ الإعلامي الذي وقفتْ وراءه أقوى قوة إعلامية في التاريخ؟ وتذكرت أثناء حديث صديقة أن مجموعة من زعماء طالبان أكدوا مرات كثيرة أنهم يرحبون بعمل النساء وأنه لا خوف عليهن. وقارنتُ ذلك في ذهني بسجن الصحفيين والصحفيات في مصر وسوريا والتضييق عليهم، دون أي اهتمام من الإعلام الغربي بمآسيهم؛ فهل في الأمر مبالغة غربية بسبب موقف الغربيين من حركة طالبان التي صمدت لقراعهم ولم تتركهم يستقرون في بلدها؟

أعدت نظري إلى عينيْ صديقة. فتاةٌ حالمة تفتح عينها على الدنيا هذه السنوات فقط. فقبل ثلاث سنوات فقط كانت قاصرة. ثم إنها تربّت طيلة حياتها تحت حكم الحكومة التي نصبها الأمريكيون، وكانت تستمد شرعيتها من هجاء طالبان ونزع الشرعية عنهم.

وُلدتْ صديقة فرامرز قبل هجمات 11 من سبتمبر/أيلول 2001م بأربعين يوما. ولدت فاتح أغسطس/آب في كابل، وبعد ولادتها بنحو شهرين دخلت الولايات المتحدة وحلفاؤها إلى كابل وأخرجوا منها طالبان. وبعد أن نافتْ على عامها العشرين بأسبوعين عادت طالبان للسيطرة على كابل. فكيف يمكن أن تنظر إلى طالبان نظرة تفاؤلية مهما فعلت أو تحدثت؟!

وانتبهت من أفكاري على ذبيح الله كريمي واقفا وراء الكاميرا يؤشر بيديه أنه جاهز للتصوير. أخرجتُ قلما من جيبي وفتحت دفتر ملاحظاتي الأسود وسألت:

هل صحيح أن طالبان منعت الصحفيات من الظهور على الشاشة؟

نظرت صديقة جهة ذبيح، ثم أعادت بصرها إلي:

نعم، لقد منعوهن.

ولكني أرى المذيعات يوميا على قناة «طلوع نيوز» وغيرها... وبالملابس ذاتها التي كنت أراهن عليها إبان وجودي هنا قبل أربع سنوات.

نعم، تلك قنوات خاصة. أما القناة الرسمية الحكومية فلهم فيها رأي آخر. لقد منعوني من العمل!

كيف؟

كان ذبيح مائلا على العدسة منشغلا بضبط الإطار، وكانت صديقة قد دخلت في مزاج المقابلة المتلفزة. ركزت مخارجها وبطأت من طريقتها في الكلام واندفعت قائلة:

«القصة كالآتي؛ جاءت حركة طالبان وسيطرت على كابل يوم 15 من أغسطس/ آب. توجهتُ في الصباح التالي رفقة ثلاث زميلات إلى مقر عملي في التلفزيون الرسمي. وعندما وصلنا شعرنا بأن وجودنا غير مرحب به. ألفينا مجموعةً من الشبان المسلحين الملتحين وقوفا عند البوابة؛ سألونا ماذا تردن؟ قلنا لهم إننا صحفيات نعمل هنا. أمرونا بالانتظار حتى يسألوا قادتهم. وبعد جهد جهيد سمحوا لنا بالدخول. ولجْنا البناية التي تعوّدنا على العمل فيها فوجدناها شبه خالية، ولا توجد فيها أي امرأة. حاولتُ دخول غرفة الأخبار والبدءَ في مزاولة عملي، لكنهم أمروني بالانتظار حتى يأتي المسؤول الجديد.

بعد وقت متوتر وصل مسؤولنا الجديد. شرحنا له أننا موظفات يرغبن في العمل. رد بأن علينا الذهاب للبيت والانتظار أياما حتى يتصلوا بنا.

عدتُ للبيت وانتظرت ثلاثة أيام ولم يتصل بي أحد فقررت العودة للمكتب.

عدت إلى مقر التلفزيون في اليوم الثالث. دخلت غرفة الأخبار، وأخذت مصورا ونزلت المدينة وأنجزت تقريرا عن سير الحياة في كابل ونبضها بعد وصول طالبان إليها. عدت إلى غرفة الأخبار ومَنْتَجْتُ التقرير وسلمته. وعندما سلمته التفت إلي أحدهم:

لمَ أتبعتِ نفسك؟ نحن لا نسمح بصوت المرأة على أثير الإذاعة فكيف نسمح بصورتها على التلفزيون؟

وصمتت صديقة قليلا وهي تنظر إلي، فلم أنبس! ساد صمت مطبق، فلا يوجد في الغرفة المعتمة إلا نحن الثلاثة. بقي الصوت الوحيد الذي نسمعه صوت منبّه سيارة من الشارع أسفل العمارة. لمحتُ حزنا واضطرابا في عينيها. رأيتُ أمل الشباب وعاطفته في مآقيها. فتاة بالكاد تكمل العشرين، تدرس الصحافة في الجامعة، وكل ما بنته لمستقبلها مؤسس على حرية الصحافة. من الطبيعي أن تقلق، كيف تستيقظ اليوم لتجد كل ذلك تهاوى. فها هي طالبان التي حدثتها عنها أمها طويلا تعود إلى الحكم.

لكن الصورة التي ترسمها هذه الفتاة الحالمة للصحافة ليست بالوردية التي تظن؛ فقبل سيطرة طالبان على كابل بأربعة أشهر أعلن مؤشرُ حرية الإعلام أن أفغانستان تحتل المركز 120 من أصل 180 دولة.(98)

حاولت إعادتها لبعض الحقائق علّ ذلك يخفف عنها:

لقد رأيت الثلاثاء الماضي الصحفيةَ الأفغانية باهشتا أرغاند تقابل المسؤول الطالباني مولوي عبد الحق حماد على الهواء وتحرجه بعشرات الأسئلة، وهذه صورة لا نحلم بها في جمهوريات الضباط العربية التي

---

98. https://rsf.org/en/ranking

يمدحها الغربيون عندنا؛ فهل يبشر هذا بخير؟

كل ذلك مؤقت... نحن نعرفهم ولا نثق بكلامهم.

كان بيّنا أن صديقة خائفة جدا من حكامها الجدد؛ فالأرقام لا تعنيها وإنما الصورة المنطبعة في ذهنها هي أكثر موجهٍ وحاكمٍ لنظرتها للمستقبل. كنت قد قرأت -تحضيرا للمقابلة- تقريرا لمؤسسة «مراسلون بلا حدود»، ونص التقرير على أن أكثر من 100 صحفي ومؤسسة توقفت عن العمل خلال الأسابيع الماضية، إما بإغلاق أصحابها لها أو سفر صحفييها إلى الخارج في عمليات الإجلاء. وأن أقل من 100 صحفية -من مجموع 700 صحفية- يعملن الآن في أفغانستان وسط مخاطر محدقة.

كنت موزَّع الوجدان بين هذه الفتاة الرقيقة الحالمة، والتوجس من الحملات الغربية المسيسة. فإحصائيات «مركز حماية الصحفيين الأفغان» -المصدَرة بالتعاون مع «مراسلون بلا حدود»- تقول إنه يوجد في أفغانستان عام 2020م 108 مؤسسات إعلامية، فيها 4940 موظفا، منهم 1080 امرأة من ضمنها 700 صحفية.[99]

لكن الصورة التي حاولت صديقة - وصحفيات أخريات تحدثت معهن- إيصالها إلي هي أن التضييق والإيقاف التام قد طالا كل الصحفيات. لكني تجولت قبل يوم في محطات تلفزيونية وقابلت صحفييها وفهمت أنهم لم يتلقوا أي أمر بتقييد حرياتهم، بل طمأنتهم طالبان على عملهم وحياتهم، وأنها عفت عن كل الناس الذين حاربوها بمن فيهم الرئيس السابق حامد كرزاي الجالس اليوم في كابل تحت حراسة طالبانية. لكن الواضح أن ثمة أزمة ثقة في طالبان.

99. https://rsf.org/en/news/fewer-100-kabuls-700-women-journalists-still-working

انتبهت لذبيح يؤشر بيده سائلا:

هل أنهينا المقابلة؟

بقي سؤال واحد عن أحلامها المستقبلية!

ثم أنهينا المقابلة، وتقدم ذبيح ليزيح الإضاءة وهو يقول:

ألم أقل لك لا تقلق من الإضاءة فسأدبّر الأمر؟

وقفت صديقة وهي تحاول نزع الميكرفون المربوط بطرف قميصها قائلة بابتسامة:

كيف كانت صورتي.. مظلمة؟

أبدا..

وقفت قائلا:

كانت الصورة ممتازة. والآن علينا أن نتحرك إلى مسؤولك الجديد. سنقابل مدير التلفزيون لنُسمعَه قصتَك ونسمع ردوده. نتمنى أن تعودي إلى عملك قريبا.

خرجت من البناية إلى الشارع الصاخب. بدت الشمس المشرقة وسيارات الأجرة والأطفال المنادون على بضائعهم عالما آخر بعيدا عما كنت فيه. فيمَ يفكر هؤلاء؟ هل يفكرون في حرية الإعلام؟ أم في لقمة العيش؟ هل يؤرقهم الوجه الأيديولوجي لطالبان؟ هل هم حزانى لهروب أشرف غني؟

لم يمض نصف الساعة حتى كنت جالسا مع المدير الجديد للتلفزيون الأفغاني العام. لم يكن لدينا موعد مع مدير صديقة الجديد. لكني حرصتُ على مقابلته بأي صيغة؛ فالمهنية تقتضي أن أسمع طرف القصة الآخر، ثم إن

جانبا إنسانيا آخر ألحّ عليّ ولا أجد غضاضة في البوح به. كنت أود أن أوصل شكوى الفتاة إليه، وأن يعلم بوصول قصتها للصحافة العالمية كذلك.

دخلنا إلى مقر التلفزيون، وجلسنا داخل مكتب المدير. بدا المولوي أحمد متقي رجلا أربعينيا كثّ اللحية أبيض العمامة هادئ النظرات. فهمت من لون عمامته أنه ينبغي أن يكون تلقى دروسا متقدمة في علوم الشريعة الإسلامية، فسألته عن تخصصه:

أنا متخصص في الحديث!

وخطر لي أن طالبان ربما تكرر تجربة الإيرانيين حيث تولي المناصب الأساسية لرجالها الأوفياء، لا للمختصين المنتمين لتوجهات سياسية مختلفة. شرح لي كيف درس في الهند، وتحدث عن اهتماماته العلمية، ثم جبَهْتُه بالسؤال:

لِمَ لَمْ تسمحوا للصحفيات بالعمل؟ لمَ قال أحد العمال لإحدى الزميلات إنكم لا تسمحون لها بالإذاعة فكيف بالتلفزيون؟ ما هذا التمييز؟

ابتسم المولوي بلطف، ثم نادى أحد معاونيه ليأتي بالشاي الأخضر والمكسرات، وقال:

نحن لا نميز ضد المرأة نهائيا. نحن واجهنا مشاكلَ أمنية عند دخول المجاهدين إلى كابل. وحرصاً منا على سلامة الفتيات واحترامهن طلب بعضُ المجاهدين من الموظفات البقاءَ في البيوت مؤقتا حتى تستقر الأوضاع أمنيا. فالتلفزيون يقع بمنطقة أمنية حساسة، ودخولها يوميا في هذه الفترة صعب وخطر عليهن. لذلك طلبنا منهن الانتظار حتى نحاول خلق بيئة آمنة لعملهن. وهذه أوامر قادتنا. فالنساء يجب أن يؤدين واجبهن الإعلامي في بيئة مريحة لهن، ونحن نحترمهن ونؤمن بحقهن في العودة إلى العمل.

أنهيت المقابلة وودعت المدير الجديد للتلفزيون. لكنني ما كدت أخرج من المبنى حتى رن هاتفي. كان الأستاذ الجامعي حمزة حكيمي على الهاتف:

أحمد، أنا رفقة محمد أعظم ننتظرك في الفندق.

من؟

الشاب المقاتل الطالباني الذي طلبتَ مقابلته.

سارعت خارجا من باب التلفزيون وأنا أتطلع لرؤية محمد أعظم. أتحرق لأسمع من ذلك الجيل الألفيني الذي قاتل الأمريكيين؛ لماذا وكيف؟ وما السبب الذي جعله يصمد للمناجزة كل هذه السنين؟

سر صمود طالبان

«أشدُّ أهل القتال متغضّبٌ من ذِلة، ومحامٍ على ديانة، أو غيورٌ على حرمة».

أبو مسلم الخراساني

دخلت بهو فندق «نجمة كابل» وأنا أفكر في شكل الشاب الذي ينتظرني. لم يطل بحثي كثيرا؛ فما إنْ تجاوزت البابَ الحديدي الضخم الذي يؤمّن الفندقَ حتى لمحته جالسا مع حمزة حكيمي على الأريكة الخضراء المنصوبة في زاوية البهو عن يمين الاستقبال.

كان محمد يلبس قبعةً أفغانية مفتوحةً مما يلي جبهته، وقميصا وسروالا عنابييْن، وصدريةً ترابية. تبادلنا التحايا وأنا أفتح المحمول وأقول:

صوتك في الهاتف يعطيك عمرا أكثر مما تبدو عليه!

ضحك وهو يحك كفيه كأنه يتجهز لأمر ما:

كل الناس في هذا الزمن يبدون أكبر من أعمارهم!

أول ما لفت انتباهي في محمد أعظم طريقته في الحديث؛ فهو يتحدث بثقة وهدوء، ولا يحرك يديه أثناء حديثه كثيرا إلا إذا انفعل. لا يمكن تمييزه عن أي شاب أفغاني منشغل بدراسته الجامعية. فمع جسمه القوي وذراعيه المكتنزتين؛ فإن ملابسه وهيأته وطريقته في الحديث لا تشي أبدا بالحياة الاستثنائية التي عاشها.

فقد تربى في مديرية تَغابْ، بمحافظة كبيسة شرقي أفغانستان. نشأ في هذه المديرية التي لم تنجح الولايات المتحدة في إخضاعها قط. قال لي وهو

يضم سبابته إلى إبهامه رافعا يده في الهواء: «كانت أمريكا كلما دخلت تغابْ وسيطرتْ عليها أُخرجت منها في الأيام التالية، وهكذا دواليك عشرين عاما».

كان والده سابع سبعة بدؤوا مقاومة الأمريكيين بالمنطقة؛ «كنتُ صغيرا حينها، لكني كنتُ أرى والدي يجمع الرجال ويكلم العلماء ويقنعهم بوجوب القتال. كان مصرا على أنه يجب إخراج الغزاة من أرض الإسلام، لا محيص عن ذلك»!

لاحظت -منذ الدقائق الأولى من حديثي مع محمد- إعجابه بوالده؛ فإذا تحدث عن مواقفه لمعت عيناه وازدادتا اتساعا وبريقا، وبدأ يعبث بالخاتم ذي الفص الأخضر في بنصره اليسرى؛ «كان والدي طبيبا بيطريا، لكنه لم ينشغل بعلاج الحيوانات.. بل بعلاج النفوس البشرية، وجراح المجتمع! لم يرتح يوما واحدا منذ أفقت. إما أن يعمل ليطعمنا أو يخرج لينصح الناس بالمقاومة، أو يحمل السلاح ضد المحتل. ذلك دأبه الدهرَ كله إلى أن قتله الفرنسيون لعنهم الله»!

كنت مندفعا أكتب على المحمول كل كلمة يتفوه بها محمد، ثم رفعت يدي وحدقت فيه:

الفرنسيون؟

مال إلى الوراء قليلا وابتسم ابتسامة حزينة: «كان الأمريكيون قد ملوا من محاولات إخضاع تغابْ؛ إذ كانوا لا يستطيعون المكوث فيها أبدا، فكلما استقروا فيها هاجمتهم المقاومة، وإذا خرجوا منها سيطر عليها المجاهدون. فنسقتْ أمريكا داخل حلف الناتو ليأتي الفرنسيون».

ملتُ إليه قليلا لأسأله، وقبل أن أتفوه اقترب أحد نادلي الفندق حاملا

شايا أفغانيا أخضر ووضعه، ثم أخرج صديقي حمزة حكيمي كيسا وفتحه وقال:

هذا شمّامٌ لا يوجد إلا بمنطقة معينة ونسميه «خربوز[100] كركك» ومعناها بالفارسية «شمامُ الذُّئيبْ»! أتمنى أن تتذوقه.

شعرت بأن اللحظة غير مواتية لتناول الشمام. هززت رأسي شاكرا حمزة على كرمه، معيدا نظري إلى عينيْ محمد. وجدته ما زال محتفظا بتلك الابتسامة المتوثبة للحديث، فقلت:

وماذا فعل الفرنسيون مختلفا عن الأمريكيين؟

رفع يديه معا وضم رؤوس أصابعه وخفض صوته ورفع رأسه إلى الخلف: «هناك أمر يجب أن تعرفه. منطقة تَغابْ منطقة ساحرة يوجد فيها أفضل أنواع الرمان في أفغانستان وربما في العالم كله. وهي مروجٌ خضراء آسرة. وعندما جاء الفرنسيون ورأوها تملّكهم العجب وقالوا للأمريكيين: أنتم لمْ تقاتلوا! كيف تكون المنطقة بهذا الاخضرار وكثرة الفواكه وهي أرض حرب؟ كانت طريقة الفرنسيين مختلفة عن طريقة الأمريكيين في القتال. يقاتل الفرنسيون مثل طالبان؛ يدخلون الحواري ويَقتلون ويُقتلون ويستقرون في الأحياء والشوارع والمدينة. بينما يحرص الأمريكيون عادة على ألا يصاب منهم أحد، وألا يمكثوا طويلا بأماكن الخطر».

وكيف قُتل الوالد؟

كان أبي -رحمه الله- من جيل حر مسكون بحب الاستشهاد والتضحية.

100. لعل هذا «الخربوز» هو البطيخ/ الشمام الذي كان أهل الحجاز يسمونه «الخِرْبزَ». وفي مسند أحمد بن حنبل (ت 241هـ/ 855م) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان «يجمع بين الرطب والخِرْبِز». ويقول الجاحظ في «البيان والتبيين»إن لفظة «الخِرْبِزَ» فارسية الأصل، وإن «أهل المدينة لما نزل فيهم ناسٌ من الفُرس -في قديم الدهر- علِقوا بألفاظ من ألفاظهم؛ ولذلك يسمون البطيخَ: الخِرْبِزَ».

فقد ترك الدنيا لأهلها وكان همه الدفاع عن حياض أمته ودينه ووطنه. كان بمنطقة ألسايْ بمديرية تغاب، فهاجم هو ومجموعة من رفاقه المجاهدين القوات الفرنسية يوم 13 من سبتمبر/ أيلول 2011. كان صباحا حزينا من صباحات تغاب في شهر سبتمبر/ أيلول، يومين بعد الذكرى العاشرة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول؛ فاستشهد رحمه الله.

كنت أتحدث مع محمد بخليط من الإنكليزية والفارسية، لكني كنت ألجأ للأستاذ حمزة حكيمي للترجمة غالبا حرصا على بعض التفاصيل الدقيقة. وهنا ملتُ جهة حمزة:

اسألْه عن شعوره يوم مقتل والده، وماذا فعل بعد سماعه خبر مقتله؟

اتسعت عينا محمد، ورفع يسراه وحكّ بها طرف جبهته، وقطّب جبينه:

كان يوما فاجعا في حياتي؛ فقد استشهد الوالد وترك لي أمًّا وخمس أخوات وأخا أصغر مني، وأنا في الرابعة عشرةَ من العمر. يمكنك أن تقول بأني كبِرت في يوم واحد! أصبحتُ رجلا في ذلك الصباح! فمسؤولية رعاية أهلي وإطعامهم وقعت على كتفي، ومنذ ذلك اليوم بدأت أزاوج ثلاثة أعمال بالتوازي: أجاهد، وأدرس، وأعمل.

وماذا درست؟

درست في تغاب حتى أكملت الثانوية، ثم رحلت إلى هلمند ودرست فيها حتى أخذت البكالوريوس في الهندسة المعمارية؛ طبعا درست الإنكليزية كذلك.

كنت أنظر إلى محمد وهو يصف حاله وحال أسرته؛ شاب في الرابعة عشرةَ من العمر يتولى مسؤولية تدريس نفسه ومعيشة أهله، ويدخل المعمعة السياسية الكونية محاولا طرد أقوى قوة في العالم. هاجمتني أسئلة كثيرة أثناء

حديثه؛ فأنا أبٌ لأطفال يتربون في هذا العالم، أطفال لا يستطيع أحدهم وهو في الرابعة عشرة من العمر أن يشتري علبةَ ماءٍ من بقالة!

افترستني أسئلة من قبيل: هل يساهم الوالدان في كسر شخصية أطفالهما بالحماية المبالغ فيها أحيانا؟ هل يُخمدون قُواهم ويَفُلُّون حدّهم بمنعهم من الاقتراب من الأخطار العادية في الحياة؟ هل من الأفضل أن يُرمى الطفلُ أحيانا في بيئات صعبة ليواجه مصيره وتتفتق قواه الكامنة؟ هل منهج الحماية الزائدة الذي نضفيه على أطفالنا سلبي في بعض أوجهه؟

أفقت من خواطر الأبوة تلك وإذا محمد ما زال يتحدث:

لم يعلم أحد من الناس عن الجهاد الذي انخرطتُ فيه، فقط أمي والمجاهدون الذين معي. أما زملاء الدراسة وغيرهم فيظنونني شابا لا علاقة له بأي شيء إلا هموم الشباب العادية. كنت أعمل أيام العمل، وأدرس أيام الدراسة، وأخرج للجهاد كذلك. لكني -منذ عام أو عامين- بدأت أعمل في الدعم المعنوي في الحركة.

كيف؟

خلال السنة الماضية كنت أقدم المحاضرات وأعلّم بعض المجاهدين المصطلحات الإنكليزية التي يحتاجونها لمعرفة الأسلحة مثلا. كما أشرح لهم خرائط المدن التي قد يدخلونها لمهمات جهادية، وأقدم محاضرة ثابتة عن تعاسة الديمقراطية وبؤس الليبرالية.

أفقت على عبارته الأخيرة «تعاسة الديمقراطية»؟ رفعت بصري عن الجهاز، وتأملت الشاي الأخضر المنصوب على الطاولة، أخذت حَسوة منه وقلت بهدوء متصنَّع:

كيف؟ ما موضوع المحاضرة التي تقدمها للمقاتلين؟

تعاسة الديمقراطية وبؤس الليبرالية!

ذهب ذهني بعيدا؛ فهذه أول مرة أجالس فيها شابا من التيار الإسلامي يقدح في المبدأ الديمقراطي. فأنا من جيل عايش موجة تزعّم الإسلاميين الدعوةَ للمبادئ الديمقراطية، فمعظم خطاباتهم تتمحور حولها، وأشهر كتبهم تؤصل لها باعتبارها فرعا من فروع الشورى الإسلامية. وهم موجودون داخل الزنزانات، ومشردون في المنافي دفاعا عنها. صدمني حديث محمد، ولا أدري لمَ حضرت في ذهني دفعة واحدة صور كل من راشد الغنوشي ومحمد مرسي. صمتّ قليلا محاولا إخفاء العجب من حديثه عن الديمقراطية؛ فقال الأستاذ حمزة حكيمي:

ألا تتناول الشمام؟

شكرته ومددت يدي وتناولت منه فوجدت طعمه كأنه مغموس في العسل، فقلت ومخارج حروفي مشوشة بسبب المضغ:

هل فيه عسل؟

لا لا، هو هكذا.

وساد الصمت. وغدا الصوت الوحيد المسموع صوت موظف الاستقبال يتحدث مع بعض الزبائن، وأصوات منبهات السيارات القادمة من الشارع العام. تذكرت أن حركة طالبان -التي ينتمي إليها محمد- ليست من جنس الحركات الإسلامية التي أعرف؛ فطالبان ليست وليدة لسلفية محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ولا متأثرة بمدرسة الإخوان المسلمين. بل هي جنس آخر مختلف تماما.. فهي حركة نابعةٌ من التدين التقليدي الأفغاني المنقوعِ في المذهب الحنفي والتصوف والماتريدية، ولم تتأثر كبيرَ تأثرٍ بالمدارس الإسلامية الحديثة المنفعلة بالخطاب الغربي في المجال السياسي.

مرت دقائق فلاحظت أني الوحيد الذي أكلت الشمام وشربت الشاي؛ فقلت بنبرة خَجْلَى:

لم لا تأكلون؟

مال حمزة جهة الصحن وأخذ قطعة وقال:

نحن نأكل!

كان السؤال الذي في ذهني يتمحور حول الأسباب التي جعلت هذا الشاب يمنح عمره كله لقتال الأمريكيين. ما الدافع الذي جعله يقلق شبابه كله من أجل طرد الأمريكيين. قلت لحمزة:

اسأله، لمَ يقاتل الأمريكيين منذ كان عمره أربعة عشر عاما؟

اعتدل محمد في جلسته وقال بلغة هادئة:

الجهاد فريضة، وإذا غزا غيرُ المسلمين شبرا واحدا من أرض إسلامية وجب القتال على كل مسلم في ذلك البلد. ثم إننا رأينا تاريخ الأمريكيين مع الأمم التي غزوها -أو كانوا وراء غزاتها- من فيتنام إلى فلسطين، رأينا كيف عبثوا فيها وأفسدوا مجتمعاتها ثقافيا ودينيا؛ فأردنا ألا تصبح أرضنا مثل فيتنام أو فلسطين. عندما جاء الأمريكيون كنتُ طفلا في الرابعة من عمري، وأذكر ما كان الكبار يقولونه عن الأمريكيين. كنت أسمع أنهم جاءوا ليقضوا على الملالي (= علماء الدين) ويبنوا أفغانسان بلا ملالي وبلا دين وبلا ثقافة خاصة. انخدع بعض الناس وأعطوهم فرصة ثم تبين أنهم فشلة. وهكذا قرر المجاهدون حمل السلاح والقتال. والمثل العربي يقول: «من طلب وجد»؛ فلأنا أخذنا السلاح وطلبنا الحرية وجدنا النصر. ولا مقارنة بين سلاحنا وسلاحهم، لكن الهمة والقوة النفسية سلاحنا.

صمت محمد قليلا، والتفتنا جهة باب الفندق فإذا بمجموعة من

الصحفيين الأتراك قادمة، كانوا يحملون حقائب ضخمة ومعدات تصوير كثيرة. صمتنا حتى تجاوزونا جهة الاستقبال فقلت:

ما تفسيرك لقدرة طالبان على الصمود عشرين عاما؟ لِمَ لمْ تتلاشَ؟

مال محمد جهتي وتبسم عن أسنانه المتراصة القوية وجمع رؤوس أصابع يديه:

العلماء، والمدارس، والهوية، وحب الإسلام. هذه هي العوامل التي أمدت الإنسان الأفغاني بالصبر على مطاولة الأمريكيين ومصاولتهم. وهي المنابع ذاتها التي أمدتنا بالصبر على مقارعة الإنكليز ما بين 1838 و1843م، وأيام الروس حتى هربوا بداية عام 1989، وها هي اليوم تجعل الأمريكيين يتكدسون داخل مطار كابل هلعا قبل الرحيل. ثم إن هذا الشعب عصيٌّ على الغازي الأجنبي؛ فلم يكن المقاتلون كلهم علماء ولا طلاب علم، بل معظمهم من الناس العاديين. رأيت كثيرا منهم يدخنون وبعضهم يشرب الحشيش، لكنهم كانوا يقاتلون قناعة بأن هؤلاء الأجانب جاءوا لبلادنا ليغيروا ثقافتنا ويفرضوا علينا ثقافتهم، ويتدخلوا في شؤون بيوتنا وكيفية معيشة نسائنا.

وسكت محمد، ومد يده أخيرا لكأس الشاي الأخضر. حسا حسوة ثم أعاده إلى الطاولة وتأوّه! أرسل نظره مع الممر الواسع المؤدي إلى الباب ولم ينبس. كنت أتأمل وجهه الشبابي وملابسه العنابية المتناسقة وأتخيله في المعارك؛ ثم قلت بالفارسية:

أمتزوج؟

كنت كأنما أيقظته من ذكرى دفينة أو تأمل بعيد. صمت قليلا ثم التفت إلي:

التضحيات تقتضي تأخير الزواج، وكان شيوخنا يقولون لنا إن المجاهد لديه مسؤوليات أهم من الزواج، وعلينا التضحية من أجل ذلك.

مددت يدي لقطعة الشمام الطازج وقلت:

كيف كان سلوك كباركم في المعارك؟

تنهد بحرقة، ثم عاد إلى الوراء ودس منكبه في الأريكة، وشبك ساعديه:

هذا كان من أقوى أسباب بقائنا في الجهاد، كنا نرى إخلاصهم وتفانيهم، وتضحيتهم بأهلهم وأموالهم، وتقدمهم في لحظات الاشتباك. هذا كان زادنا الحقيقي. ومن كان منهم أبا ما كان أبدا يضن بابنه في وقت الاشتباك أو يعامله معاملة خاصة.

تأملت عينيه الطافحتين بالمشاعر وقد ظللتهما دموع رقراقة، فأشاح بوجهه جهة الاستقبال وقال بلهجة مفتعلة:

لِمَ لمْ يأتنا بكؤوس شاي أخرى.. هذا الشاي برد.

وساد صمت ثقيل. كان واضحا أن الحديث أخذ محمدا حتى أفاق على ذكريات عميقة في تلافيف ذاكرته. ربما تذكر صديقه وابن خاله، وربما تذكر مقتل والده.. وربما قارن بين لحظات الضعف والتخفي وهذه اللحظات التي يجلس فيها في فندق وسط العاصمة متحدثا عن تاريخ قتاله للأمريكيين.

بعد دقائق كنت واقفا أمام الفندق أودّعه هو وحمزة. وقبل خروجهما بقليل قال لي حمزة باسما:

كنت تطيل الأسئلة وكان هو يطيل الأجوبة.. ونسيتما أنني لست جهاز «أم بي 3»!

واختفيا مع الشارع المزدحم أمام فندق «نجمة كابل».

عدت إلى بهو الفندق وأخذت محمولي، وصعدت إلى الغرفة وأنا أتابع على شاشة هاتفي أخبارا عاجلة عن هجوم وشيك على مطار كابل.

الصفحة الأخيرة

«خلاصةُ التاريخ أن الشعوبَ والحكوماتِ لم تتعلم قطُّ شيئا من التاريخ»!

هيغل

انطبع يوم 26 من أغسطس/آب 2021 بجو مترع بالتوتر والترقب! بدتْ الشمس المائلة عن كبد السماء قويةً مع درجة حرارةٍ معتدلة؛ فكابل مرتفعة عن سطح البحر بـ1800 متر مما يجعل شمسها لافحة دوما إلا في الفصول الباردة. كنت جالسا في المقعد الخلفي لسيارة رباعية الدفع، مُرسِلا بصري مع النافذة إلى الشارع المكتظ المؤدي إلى مطار كابل. تنعكس ظلال العابرين على الحيطان الطويلة، ويزحف بحرٌ من السيارات وسط خوفٍ مخيِّمٍ في الهواء. فقد كرر الرئيس الأمريكي جوزيف بايدن وجنرالاتُه مراتٍ أن خطرا أمنيا وشيكا يهدد محيط المطار. رأيت وجه سائقنا تاج غل في المرآة العاكسة للسيارة. بدا هادئا صامتا منشغلا بتسريح لحيته بيده اليسرى، بينما لا يكف هاتف زميلي حميد الله -الجالس عن يميني- عن الرنين.

أرسلتُ بصري فتراءت الدكاكين عامرةً بالزبناء رجالا ونساء وأطفالا. الأفغان في ملابسهم التقليدية كالعادة بحيث لا ترى أي إنسان يلبس ملابس غربية. ثم عبرتْ من أمام السيارة مجموعة من الفتيات المتلفعات بمُرُوطِهنّ، المتمتْرِسات خلف التشادوري (عباة نسائية) الأزرق. كانت عيونهن تلمع تحت البراقع المخرمة، ونغماتُ ضحكاتهن تصل أذني بوضوح. خطر لي أنهن غير معنيات بأخبار الخوف التي تنهشنا.

كيف استطاع الأفغان التعايش مع الرصاص والانفجارات كل هذا

الزمن؟ كأن حرب الأربعين عاما علمتهم فنَّ الاستظلالِ بالرصاص وهم يكتبون الرسائل الغرامية، ويقرضون الشعر! فكل مظاهر الشارع لا تشي بأن خطرا أمنيا يهدد هذه المدينة التي لم تعرف هدوءا منذ دخلها الغزاة السوفيات في ديسمبر/ كانون الأول عام 1979م.

لاحظت أننا على بعد أمتار من إحدى بوابات المطار فقلت لحميد:

إلى أين تأخذنا؟

سنمر من أمام البوابة الشرقية سريعا.

ملت على حميد ولكزته بمرفقي:

يا رجل! لمَ تأخذنا إلى البوابات؟ الانفجار مؤكد حسب الاستخبارات الأمريكية.

حرك حميد رأسه أفقيا، وقال بهدوئه الذي لا يفارقه:

أخوك لن يأخذك إلى الخطر.

مرت دقائق ثم لمحت بوابة المطار الشرقية العسكرية. مررنا أمامها فلمحت جنودا أمريكيين ومئاتِ الأفغان الزاحفين في الطوابير محاولين الدخول؛ فتساءلت: كأنهم غير معنيين بالتهديدات؟ تجاوزنا البوابة وأنا أشعر بتوتر وخوف! ماذا لو وقع الانفجار أو الاشتباك الآن؟ مرت لحظات كثيفة وتاج غل يسوق وسط الضوضاء والزحام صامتا.

كنا عائدين من نقطة مرتفعة مطلة على المطار، حيث أجريت عدة إطلالات على قناة الجزيرة. فمنذ بدأ التهديد الوشيك للمطار تركنا الوقوف أمام البوابات وبحثنا عن نقاط بديلة يمكن الظهور منها والمطار خلفنا، دون أن نكون وسط الزحام عند بواباته. تجاوزنا البوابة الشرقية فخف الزحام

وانطلقنا جهة المكتب. ما إنْ تجاوزنا المطار بربع ساعة حتى دوّى الانفجار! لقد وقع انفجار هائل في البوابة التي مررنا أمامها قبل قليل، حيث جاء انتحاري وتقدم حتى وصل إلى الجنود الأمريكيين، لكنهم ما إن بدؤوا تفتيشه حتى سحب الحزام الناسف وانفجر.

سقط 18 جنديا أمريكيا وهم يحزمون حقائبهم للرحيل! وقُتل أكثر من مائة أفغاني من المساكين المتجمهرين أمام البوابة. وقع هذا مع أنه لم يبق للأمريكيين إلا عشرات الساعات في البلاد. أعلنت الولايات المتحدة أن الواقف وراء الضربة هو تنظيم «داعش». ذلك التنظيم العبثي المتهم بجذوره الاستخباراتية دوما. وبغض النظر عن بؤس الواقفين وراء التفجير وعبثيتهم؛ فإن الانفجار يُذكّر بعادة قديمة للأفغان في تشييع المحتلين، فكأنهم دوما يحرصون على صفعة الوداع.

دارت تلك الأفكار في ذهني وأنا أسارع إلى المكتب شاعرا بإرهاق طاغٍ بسبب السترة الواقية التي ارتديتها ساعات. دخلت المكتب الواقع بمنطقة الوزير أكبر خان فخلعت السترة وخرجت إلى فناء المكتب، حيث شجيرات ونباتات وفضاء مفتوح. جلست فنفحتني أنسام المساء وأنا أرفع ناظري إلى الظلام الزاحف على هذه المدينة التي ارتبط اسمها باسم الغزاة والمقاومة وصراع القُوى.

جلستُ مسترخيا متأملا الجبال الجامحة في الأفق. هنا في أطراف هذه المدينة وجَّه الأفغانُ صفعة أخرى للمحتلين قبل ما يقارب القرنين؛ تلك الصفعة التي ودّعتْ بها كابل جيشا غازيا آخر، جيشا بريطانياً قبل نحو 180 عاما.

كان ذلك في 11 يناير/ كانون الثاني 1842 حين خرج البريطانيون من كابل بجيش مؤلف من 700 مقاتل أوروبي و4000 مجند هندي و14 ألفا

من المعاونين والخدم. خرجوا من هذه المدينة قاصدين جلال آباد.

خرج الجيش الإمبراطوري سكرانَ بأسلحته ونظامه وتقدمه التكنولوجي. اندفع مع السهول والأودية المغطاة بالثلوج، لكن المقاتلين البشتون كانوا ينتظرونه بين الشعاب والأودية والأحراش والآكام والآجام؛ فهاجموه وأبادوه كلَّه. كان أول وآخر جيش بريطاني يُباد كاملا. لم يتركوا إلا النساء والأطفال، أما الجيش فلم يتركوا منه إلا طبيبا عسكريا واحدا اسمه وليام برايدن[101]. تركوه ليصل إلى جلال آباد محطما جريحا عطشان جائعا فوق مُهر جريح مرهَق! نجا بجلده ليحكي لشعبه حكاية الأفغان مع الأجنبي الغازي.[102]

وصل برايدن إلى جلال آباد في حالة ما زالت تطارد خيال الكتّاب والساسة البريطانيين إلى اليوم، وتحولت صورته -لحظة وصوله- إلى مادة لإبراز مهارات الرسامين والكتّاب في رصد حالة التعاسة التي يمكن أن يكون عليها جندي مهزوم. فقد وصفه أحد الضباط الذين استقبلوه لحظة وصوله بأنه تراءى لهم من بعيد «مُنحنيا -لا جالسا- على مُهر بائس! أوروبي مغشي عليه من السفر.. أو من الجراح»![103]

عادت لذهني صورة الأمريكيين الذين يفترشون تراب مطار كابل، مستلقين في كل ركن مرهقين تائهين خائفين منحنين. ثم تذكرت صورة الجندي الأمريكي الشاب الذي لمحتُ صفحةَ وجهه أمام البوابة قبل نصف ساعة من الانفجار؛ ليت شعري هل قُتل في الانفجار؟ لا شك في ذلك إذا

---

101. Diana Preston, *The Dark Defile*, (New York: Walker and Company), 2012, 213.

102. William Trousdale, Dr. Brydon's Report of the Kabul Disaster and the Documentation of History, Military Affairs, Vol. 47, No. 1 (Feb., 1983), pp. 26-30.

103. Diana Preston, *The Dark Defile*: Britain's catastrophic invasion of Afghanistan, 1838-1842. (New York: Walker and Company)2012, 215

كان بقي بمكانه؛ فمكان وجوده هو مكان الانفجار بالضبط. ذلك الفتى الذي جلبه مسؤووله من أقاصي الدنيا ليُقتل هنا وقت الغروب عند بوابة كابل.. شرقي خراسان! خُيل إليّ أن لسان حاله يُنشد قول مالك بن الريب:

لعمري لئن غالتْ خراسانُ هامتي * لقد كنتُ عن بابَيْ خراسانَ نائيا![104]

لقد كان نائيا في كنساس أو تكساس حتى قرر مسؤول ما رميَه هنا في هذه البلاد المتبرمةِ فطرةً بالغريب الغازي.

وصلتْ أصوات صفارات الإسعاف مسمعيَّ وأنا جالس أمام المكتب، وبدأت سيارات الإسعاف تتقاطر على المستشفى القريب حاملة الجرحى الأفغان، ممن كانوا متجمهرين محاولين الهجرة. كما وصلت أخبار إلى هاتفي عن تحذير أمريكي من هجمات أخرى وشيكة.

104. مالك بن الريب (ت نحو 57هـ/ 678م) شاعر عربي كان يحترف الصعلكة وقطع الطريق ثم تاب وقرر الخروج في الجيش الإسلامي إلى خراسان، لكن الموت فاجأه فكتب قصيدة يرثي بها نفسه تقطر ألما ورقة.

كابل، 11:59م.

«لا أصدق! لقد هربوا وتركوني بعد خدمتهم عشر سنين!»

المواطن الأفغاني أكرم شاه متحدثا عن الأمريكيين.

في 30 من أغسطس/ آب 2021، وعلى تمام الساعة 11:59م بتوقيت كابل؛ سمعتُ إطلاقَ نار يملأ الفضاء! كنت واقفا أمام الكاميرا أتحدث إلى قناة الجزيرة من سطح مكتبها في كابل، وكان زميلي المذيع عبد السلام محمد على الطرف الآخر من السطح. كنت مستغرقا في الحديث عن إعلان القوات الأمريكية عزمها إجلاء آخر جندي من جنودها غدا بعد أربع وعشرين ساعة، وعلى تمام 11:59م بتوقيت كابل. أي يوم 31 من أغسطس/ آب 2021م.

فجأةً لعلع الرصاص وبدأ يقترب من مكتبنا؛ قاطعني زميلي عبد السلام قائلا: نحن نسمع إطلاق نار متواصلا، فجاريتُه:

نعم، أسمع إطلاق نار كثيف، وأرى التراشق بالشهب في الفضاء!

مرّت ثوانٍ.. والأصوات تقترب أكثر؛ ثم سمعنا إطلاق نار متقطعا في الشارع المحاذي للمكتب. توتَّر الجو؛ فقد أعلنت الولايات المتحدة قبل ساعات أن «داعش» تُعد لهجوم وشيك في العاصمة كابل، فهل قام مسلحو التنظيم بدخول هذه المنطقة والاشتباك مع طالبان؟ هل سيتقدمون إلى الإعلاميين لكي يحققوا أمرا ما؟ فقد عُرف التنظيمُ بحبه للعمليات التي تحظى بتغطية إعلامية كبيرة.

سمعت صوت عبد السلام في المِلْقان المندسّ في أذني:

نُنهي هذه النافذة إذن ونعود إلى الدوحة!

نعم، علينا النزول عن السطح!

نزلنا عن السطح خوفا، والرصاصُ يزداد قربا. هبطنا واجتمعنا داخل الغرفة الأرضية التي نتناول فيها الطعام عادة. غرفة كبيرة مستطيلة مفروشة بالسجاد والمساند الزرقاء. هبط المصور السوداني أشرف عثمان، وبدأ يصرخ محتجا على نزولنا. كان يرفع يديه في الهواء ويقول بلهجته السودانية:

يا أخي دا ما معقول؟ أنتو خايفين من أيش؟ اعطوني الكاميرا. أنا رايح أصور! إذا هجوم بره لازم نصوره!

لكن الرصاص اقترب أكثر. صعد أشرف مع السلم مسرعا وأخذ الكاميرا وانطلق إلى الشارع، بينما تكوَّمنا هلعين. بدأنا نتفقد مواقع التواصل الاجتماعي فوجدنا الإعلام الأفغاني يتحدث عن إطلاق نار كثيف. وبعد لحظات بدأ مدونون أفغان يكتبون أن الرصاص ليس اشتباكا بل احتفالا برحيل الأمريكيين!

إذنْ؛ لقد أعلن الأمريكيون انسحاب آخر جندي من جنودهم وأنا على الهواء تمام الساعة 11:59م دقيقة يوم 30 من أغسطس/ آب، أي قبل اليوم الذي عينوه بأربع وعشرين ساعة. ترامقنا في ظلام الغرفة المستطيلة ضاحكين من خوفنا. بدأ أحد المصورين يقلد لحظة نزولي من السطح، ولملمة المذيع لأوراقه وإعلانه العودة إلى الدوحة. ضحك زميلنا، ومسؤول الفريق أمير عباد قائلا:

هذه اللحظات المتوترة تذكرني بتغطية الحرب في سوريا.

التفت إليه:

أنت ناج من صواريخ بشار، وهذه الأمور نزهة عندك!

عدت لأتحدث إلى الجزيرة عن لحظات الانسحاب الأمريكي. وقفت أمام الكاميرا شاعرا بإحساس غريب يشبه الحلم؛ فقد امتلأ ذهني بصور سريعة للحظات الممهدة لهذا الخروج الأمريكي الفوضوي. ففي عام 2013؛ تسلّم الجيش الأفغاني المهام العسكرية والأمنية من قوات الناتو استعدادا لوراثته للبلاد منها، كما يقع في معظم البلدان التي يغادرها المستعمر. فلا يكاد المحتل يستثمر في شيء استثماره في الجيش والمخابرات، ولذلك أنفقت الولايات المتحدة نحو ثلثيْ نفقاتها في الملف الأفغاني على الجيش،[105] فدربته وسلحته، وظل العسكريون الأمريكيون يمدحونه بالشجاعة والإقدام.

حاولتُ طيلة الأيام التالية لدخول طالبان إلى كابل فهمَ أسباب التدهور الاستثنائي لثلاثمائة ألف جندي أفغاني مدربين أمريكيا. وما فهمته –من أحاديثي مع قادة طالبان ومع الأفغان العاديين– أن ذلك الجيش لم يؤمن يوما بالحكومة التابعة لواشنطن، بل كان منتسبوه شبانا يبحثون عن مصدر للعيش دون أي إيمان بشرعية الحكومة. ولذلك لم يتوان قادتهم في التواصل مع طالبان منذ توقيع اتفاقية الدوحة؛ فبعد الاتفاقية جرت اتصالات كثيرة بين طالبان وقادة الجيش وزعماء القبائل، ووقعت اتفاقيات وتفاهمات مع كثير من الضباط بتسليم مدنهم وثكناتهم دون قتال. ومع ذلك فقد كان المتحدث باسم البنتاغون جون كيربي يثني –قبل دخول طالبان إلى كابل بأسابيع– على الجيش الأفغاني ويصفه بأنه قادر على الدفاع عن نفسه.[106]

كان واضحا لمتتبع السياسة الأمريكية في أفغانستان أن واشنطن كانت

105. https://www.politico.com/news/2021/08/13/afghan-army-pentagon-504469

106. https://www.defense.gov/News/Transcripts/Transcript/Article/2692969/pentagon-press-secretary-john-f-kirby-holds-an-off-camera-press-briefing/

في مأزق. يتبين ذلك من خلال التخبط وعدم وضوح ما يفعلونه بسبب ضغط طالبان، والبيئة غير المرحبة. فبعد عام من تسليم المهام العسكرية للجيش الأفغاني؛ أعلن الرئيس الأمريكي حينها باراك أوباما عام 2014 جدولا زمنيا لتخفيض عدد القوات الأمريكية في أفغانستان. وفي أغسطس/ آب 2017 تخلى الرئيس الأمريكي دونالد ترمب عن خطة الانسحاب من أفغانستان، مقررا إبقاء 5500 جندي.

لكنه تراجع لاحقا واستأنف المفاوضات التي كان قد أوقفها، ووقّع اتفاقية السلام مع طالبان في فبراير/ شباط 2020؛ كما سنشرحه لاحقا. وتضمنت الاتفاقية جلاء القوات الأمريكية والناتو بحلول شهر مايو/ أيار 2021. غير أنه في إبريل/ نيسان 2021 كشف الرئيس الأمريكي الجديد جو بايدن عن نية بلاده إكمال انسحابها من أفغانستان بحلول 31 من أغسطس/ آب. وفي يوليو/ تموز 2021 غادرت القوات الأمريكية قاعدة باغرام الجوية فجأة دون إخبار الجانب الأفغاني أو الترتيب معه!

كنتُ غارقا في استعادة هذه التفاصيل، حتى سمعتُ المنتجَ من الدوحة يهمس في أذني:

أدرْ وجهك إلى الشاشة! ستكون على الهواء بعد أربع ثوان!

بدأت أتحدث. وعندما أنهيت المقابلة وجدت المصور أشرف عثمان يضحك:

أضحكتني لغتك، قلتَ مرتين: «هذه ليلةٌ ليْلاءْ»! ما معنى ليلة ليلاء؟!

ودخل في هستيريا من الضحك. ضحكت وأنا أنزع الملقانَ من أذني، ثم شرحت له أنْ ليس في الأمر تحذلقا، وإنما هذه هي الصيغة التعبيرية التي طفتْ على لساني تعبيرا عن الحدث الجلل المتكشف أمام ناظري. فأي شخص يحمل حسا تاريخيا يعلم أن هذ ليلة ليلاء. والعرب تصف الليلةَ

التي يقع فيها حادث خطر بأنها ليلة ليلاء، كما تقول نفس الشيء عن اليوم؛ فتصف اليوم الذي تقع فيه أحداث جسام بأنه «يومٌ أيْوَم»!

وضحك أشرف عاليا، وهو يمسح عينيه:

يومٌ أيوم؟ لا! خلينا في ليلة ليلاء!

وغدتْ عبارة «ليلة ليلاء» مجالا للتندر بيننا بعد ذلك.

لكن من يشهد ليلة رحيل الأمريكيين من كابل يعلم يقينا أنها كانت ليلة ليلاء.

بين أطلال إمبراطورية

«أنتم لم تتعلموا من أخطائنا؛ متعاطفٌ معكم جدا!»

السفير الروسي في كابل، زامير كابولوف، مخاطبا نظيره البريطاني بعيد احتلال أفغانستان 2001.

على تمام 3:29م بتوقيت الساحل الشرقي الأمريكي (منتصفَ ليلِ كابل)؛ أقلعتْ طائرة شحن عسكرية من طراز «سي 17» حاملةً على متنها آخر جندي أمريكي من مطار حامد كرزاي الدولي يوم 30 من أغسطس/ آب 2021م. بعد ذلك بساعات استيقظتْ كابل على أول يوم ينشق فجرُه دون جنودٍ أمريكيين منذ عشرين عاما. كنت أسير في أحد الشوارع الخلفية لكابل فلم ألاحظ أي اختلاف في نمط الحياة المتكشفة أمامي. الناس يدخلون ويخرجون من عند الخباز حاملين أنواع الخبز الأفغاني، والنساء يسرن ممسكات بأيدي أطفالهن يتأملن الطريق من وراء براقعهن المخرّمة، والسيارات تتدافع في الاتجاهات متنازعة الطريق.

في عصر ذلك اليوم دخلتُ الجزء العسكري من مطار كابل. كانت قيمة المطار حينها نابعة من أنه آخر قاعدة عسكرية للأمريكيين. سمح لنا أحد قادة طالبان بالدخول بعد أخذ ورد. كان شابا متوسط القامة خافت الحديث يدعى «زيادا». سمح لنا وقرر مرافقتنا بنفسه في جولة داخل أطلال الإمبراطورية الأمريكية.

وقفت في البقعة التي رفع منها الرائد كريس دوناهو (قائد الفرقة 82 المجوقلة) رجلَه لتكون آخر قدم عسكرية أمريكية تلامس أرض الأفغان في حرب العشرين عاما. أطول فترة احتلال في تاريخ أفغانستان المعاصر،

وأطول حرب أمريكية كذلك. وقفت أتأمل الأرضية الواسعة والطائراتِ العسكرية الرابضة، والرجالَ الملتحين المسلحين الذين يقودون عربات عسكرية أمريكية وهم منشغلون بتنظيف المطار وترتيبه.

أدرت بصري في مرابض الطائرات الرمادية، والعربات الأمريكية المعطلة. تذكرت صباحات أكتوبر/ تشرين الأول عام 2001، يوم كنتُ في كنساس أسمع قرع طبول هذه الحرب. ها أنا ذا أقف في مطار كابل وأرى مسلحي طالبان. ما الذي جنته واشنطن من هذه الحرب؟ أدرت بصري في السيارات المحطمة، والطيران الجاثم، وغيوم أغسطس/ آب المتبرجة في الأفق. ثم التفتُ فلمحتُ مسلحين من حركة طالبان ساجدين قرب طائرة عسكرية تابعة للجيش الأفغاني.

وضعت حامل الكاميرا عن كاهلي ووقفت هنيهات أتأمل الصورة. لُحًى وعمائمُ طالبانية يتّشح أصحابها بأسلحة أمريكية خفيفة، وسجودٌ عند رؤوس الطائرات العسكرية التي أعدتها واشنطن لحماية أدواتها بالمنطقة؛ فهل كنت أتخيل هذا المشهد قبل عشرين عاما؟

مشينا جهة مأوى الطائرات. قبيل المأوى على يساري لمحت أكواما هائلة من البطانيات والوسائد وعلب الماء والكوكاكولا. وقف زياد مادا سبابتَه جهة الأكوام:

انظر! لقد هربوا قبل أن يرتبوا أي شيء، وكأن عشرين عاما لم تكفهم ليعدُّوا حقيبة الرحيل! أعلنوا أنهم سيرحلون في 2014، ثم أجلوا الرحيل إلى مايو/ أيار 2021، ثم أجلوه إلى نهاية أغسطس/ آب، ولم يكفهم كل ذلك. كأن خبر الرحيل فاجأهم!

سرحتُ طرفي وراء سبابة زياد فرأيت أكواما من الخوذات العسكرية،

وأقفاص الكلاب والقطط، وكتبا وبقايا سجائر، وكؤوسا على أطراف الطاولات تركتها الأيدي قبل أن تلمسها اللمسة الأخيرة! كان زياد صامتا، لكن بقايا ابتسامة ساخرة ظلت عالقة على شفتيه الذاويتين المنبئتين عن عملٍ شاق وإرهاق خلال الأيام الماضية. ثم مسح عارضيه الخفيفين، وغطى نصف وجهه بالكوفية التي يلفها على رقبته كأنه يتهيب الظهور كاملا أمام الكاميرا، وأشار متقدما جهة مربض الطائرات.

دخلنا المربض الأول فرأينا مجموعة من الطائرات التابعة للقوات الجوية الأفغانية. كانت مهشمة الزجاج منزوعةَ الأسلاك. أمسك زياد باب الطائرة:

انظر! لقد خربوا كل شيء! هذه طائرات أفغانية فلماذا يخربونها؟ هل هذه هي الحرية التي جاؤوا من أجلها؟ هل القيام بتدمير أموال شعب فقير حرية وتقدم؟

حاولت إيجاد طائرة واحدة سالمة من التخريب فلم أجدها، كل طائرة رأيتها في ذلك المساء كانت مخربة تخريبا فنيا متعمدا. ألحّ عليّ سؤال واحد عن الربح والخسارة بعد حرب العقدين هذه. لقد قامت الولايات المتحدة بتدريب 350 ألف جندي أفغاني، وأنفقت ما قالت إنها ثلاثة تريليونات دولار، وقُتل من محاربيها 6300، منهم نحو 4000 مقاتل متعاقد (معروفين في أدبيات الحروب بالمرتزقة ويسميهم الإعلام الأمريكي متعاقدين)، كما قُتل 1144 جنديا من دول حلف الناتو. هذا مع مقتل 66 ألف جندي أفغاني، و48 ألف مدني، و52 ألف مقاتل طالباني؛[107] فهل هذا هو كل ما جنته هذه القوة العظمى خلال إقامتها على هذه الأرض؟

خرجنا من مأوى الطائرات إلى المهابط فبدتْ الشمس في الأفق جانحة للغروب تكاد تختفي خلف الجبال. انعكست أشعتها على الأعمدة الطويلة

107. https://apnews.com/article/middle-east-business-4256794dcd38fe80f-7c973fbb80daf13

العارية. أعمدة كانت الأعلام الأمريكية ترفرف عليها قبل ساعات. جنح بصري متأملا الصورة الدالة لحظة الغروب. أعمدة عارية، وأكوام أوساخ، وطائرات عسكرية مُخربة، ومسلحون من طالبان.

اقتربتُ من زياد بعد أن أحسست أن لديه ما يود قوله:

انظر هناك.. حتى أقفاص القطط خربوها.. هل كانت القطط الأفغانية تحاربهم في الجبال؟

ثم ضحك مشيحا بوجهه جهةَ الشمس الغاربة. مشينا على مهبط الطائرات بينما داعبتنا أنسام اللحظات الأخيرة من أغسطس/آب. وقطع الصمتَ صوتُ أحد الرجال المسلحين يؤذّن لصلاة المغرب أمام إحدى حظائر الطائرات. زحف ليل جديد على كابل، ومشينا جهة الرجال المصلين. أحرموا للصلاة بينما انعكست ظلال لحاهم على الجدران. كانت صورةً صارخة بأن منعرجا جديدا قد أخذه هذا البلد الذي لا يملّ من تشييع الإمبراطوريات، ولا تملّ هي من مقامرات العودة إليه!

خرجتْ الولايات المتحدة من هذه البقعة كما خرجت بريطانيا قبلُ. خطرت ببالي أمنية الاطلاع على الدفاتر السرية لبعض الجنود الأمريكيين الذين كانوا هنا قبل ساعات؛ ماذا كتبوا عن جو الرحيل؟ ربما كان بينهم من كتب شيئا شبيها بما كتبه قسيس الجيش البريطاني في جلال آباد قبيل مغادرته لأفغانستان. كتب القسيس جي آر غريغ واصفا خلاصة حرب بلاده في أفغانستان ومقيّما نتائجها، وواصفا ظروف إجلاء القوات:

«هذه حربٌ بدأتْ دون هدف حكيم، ونُفذت بمزيج غريب من التلكؤ والتسرع! وأُنهيتْ بعد العذاب والمآسي دون أي مجدٍ للحكومة التي أعلنتها، ولا للجنود الذين حاربوا فيها! لم تحقق هذه الحرب أيَّ فائدة سياسية أو عسكرية، ثم كان جلاؤنا أخيرا تجسيدا لانسحاب جيش مهزوم»!![108]

108. Rev. G. R. Glieg M.A, *Sale's Brigade In Afghanistan*, (London: John Murray) 1846, 181.

طالبان أخرى؟

«لا تستطيع أمريكا التسامحَ مع وجودنا، ولا قبولَ نمط عيشنا.»

الملا محمد عمر

على تمام الواحدة صباحا فجرَ الثامن والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام 1996 توقفت تويوتا رباعية الدفع أمام مقر الأمم المتحدة في كابل. نزل منها أربعة رجال مسلحين ودخلوا المبنى عجِلين دون أن يوقفهم أحدٌ إثرَ هروبِ الحراس بعد سماعهم نبأ دخول طالبان إلى المدينة. تجاوزوا العمودَ الكهربائي الخافتَ فانعكست ظلالُ عمائمهم، وفوهاتُ بنادقهم على مدخل المبنى. دخلوا غرفةً متوارية في المبنى يوجد فيها رجلان: الرئيس الأفغاني السابق محمد نجيب الله، وشقيقه أحمد.

بدؤوا يضربون الرئيس وشقيقه بفوهات البنادق ويصيحون:

الخونة! الكفار! خائني الوطن! بائعي أنفسهم للروس!

بعد نحو عشرين دقيقة أخذوهما إلى القصر الرئاسي القريب. مشوا وسط ممراته المعتمة، وبعد دقائق توقفوا في ركن من أركانه. أخذوا نجيب الله إلى زاوية وسط الحدائق الأنيقة للقصر الذي طالما تجول فيه سيدا. وقف أحد الرجال وأخرج سكينا من طرف سترته وأشار إلى بقية الرجال بإمساكه جيدا. رفع السكين وقطع خصيتيْ الرئيس السادس عشر لأفغانستان. وتركه شبه مغمي عليه يحبو ألما، متشحّطاً في دمه! ثم ابتعد عنه وتركه يزحف ويئن على غير هدى.

نفض المسلح يدَه من بقية الدم وتقدم جهة شقيق الرئيس نجيب أحمد، بينما اقترب الرجال الثلاثة وأمسكوه. بدأ يخنقه مسندا ظهره إلى حائط القصر. خنقه حتى فاضت روحه، ثم رفع يديه عن رقبة أحمد وعاد إلى نجيب الذي ما زال يزحف ويئن شبه مغشي عليه. سدد البندقية وضربه في رأسه. ثم وضعوا حبالا حديدية في رقبة شقيقه وربطوهما بسيارة تويوتا وخرجوا إلى شوارع كابل الهادئة في تلك الساعة.

كان جوّ أيلول لطيفا، والأجواء هادئة إلا من صوت محرك السيارة وانجرار الجثتين على الشارع المليء بالحُفر التي سببها قصف فصائل المجاهدين للمدينة منذ 1992. بعد نحو عشرين دقيقة؛ توجهوا إلى دوار أريانا القريب. أخذو الجثتين وعلقوهما من رأسيهما في البرج الإسمنتي الذي يستخدم لمراقبة المرور وسط الدوار، واختفوا في ليل كابل بعد إخصاء وقتل واحد من أقوى الرجال الذين حكموا أفغانستان الحديثة!

في الصباح بدأ سكان كابل يفيقون على المشهد الصادم عند دوار أريانا! بدأ النظارة يتجمعون حوله بأفواه فاغرة وقلوب نابضة! رجلان مشنوقان، وبين أصابع كل منهما سيجارة غير مستخدمة، بينما تمتلئ جيوبهما بالعملة الأفغانية! كانت الرسالة التي أرادت طالبان إيصالها واضحة وصارخة. اختلطت مشاعر الأفغان تجاه الصورة الصادمة.[109]

شعر معظمهم بالارتياح لمقتل الرئيس الذي اشتهر بلقب «الملعقة» أثناء

109. دافع الناطق السابق باسم الحركة عبد الحي مطمئن في كتابه «طالبان: رؤية نقدية من الداخل» عن مقتل نجيب باعتباره مجرما قتل آلاف المسلمين. وصرح بأن لجنة من قادة طالبان قررت تصفيته قبل دخول الحركة إلى كابل. وتتألف اللجنة من: الملا عبد الرزاق، والملا يارانا، وعبد السلام راكتي. ونبه مطمئن إلى أن الحركة لا تقتل السجين بدليل حفاظها على حياة الزعيم الشيعي إسماعيل خان ثلاث سنوات في سجونها، رغم قتله ألف مقاتل من مسلحيها في ميدان القتال. انظر:

, 95 Abdul Hai Mutma'in, Taliban

رئاسته للمخابرات الأفغانية؛ فقد اشتهر بتعذيب المعارضين، وبهوسه بقلع الأعين أثناء التحقيق بملعقة يدسها تحت عين السجين، ثم يقتلعها اقتلاعا. ولذا كانت فترة رئاسته -التي دامت ست سنوات- لجهاز الأمن المعروف بـ«خدمات اطلاعات دولتي» فترة مخيفة في التاريخ السياسي الأفغاني المعاصر. كانت صورة نجيب الله وشقيقه معلقيْن عند دوار أريانا هي الصورة السياسية الأولى التي قدمتها طالبان عن نفسها للعالم لحظة دخولها إلى كابل.

فكرت في صورة الرجلين في أحد صباحات أغسطس/ آب 2021، وأنا أحاول الوصول إلى دوار أريانا الذي شُنقا عنده. كنت أجلس في المقعد الأمامي داخل سيارة الأستاذ الجامعي الأفغاني حمزة حكيمي. كان حكيمي متشبثا بمقود سيارة تويوتا البيضاء الصغيرة ونحن نتجاوز دوار أحمد شاه مسعود متجهين غربا. كنت أراقب بائعي التين المجفف والعنب الناضج، مفكرا في المآسي السياسية التي شهدتها هذه الشوارع مع لِحاف الهدوء الذي تبدو عليه. التفت إلي حمزة:

لا تستطيع الوصول إلى هناك؛ تلك منطقة حمراء خاصة بالاستخبارات الأمريكية ولا يدخلها غير المرخص لهم سواء قبل الانسحاب الأمريكي أو بعده. جيلي كله لم يقف في تلك البقعة، أمي فقط حدثتني أنها كانت تسير من دوار بشتونستان إلى أريانا، أما الآن فذلك مكان مغلق.

فتحت نافذة السيارة لاستنشاق الأنسام الباردة لنهايات أغسطس/ آب، وانشغل ذهني بالمقارنة بين دخول طالبان إلى كابل يوم 27 من سبتمبر/ أيلول 1996 ودخولها إليها مساء 15 من أغسطس/ آب 2021. كانت الحركة حريصة على أن يخافها الناس يوم دخولها الأول، وحريصةً على أن يثق الناس فيها يوم دخولها الثاني. فقد أعلنت مرارا عند دخولها الأخير عفوها عن كل

من حمل السلاح ضدها، وعفوها الشامل عن الرجال المخبرين المتورطين في تعذيب أفرادها، وعن الجنود والشرطة والضباط الذين حاربوها عشرين حولا. بل سمحت الحركة لشخصية مثل الرئيس السابق حامد كرزاي بأن يكون ذا دورٍ سياسي، وهو الذي أتى على ظهر دبابة أمريكية للإطاحة بها. فالتقاه زعماؤها واعترفوا به رئيسا للجنة المصالحة رفقةَ القيادي الطاجيكي عبد الله عبد الله، ذي التاريخ الطويل في معارضتها كذلك.

وخلال تجوالي في الأيام التالية لدخول طالبان إلى كابل، واحتكاكي بمسلحيها؛ لاحظت حرصهم على تقديم صورة مغايرة لتلك القابعة في الأذهان عنهم. كانوا يحاولون محو صورة 1996، وتثبيت نسخة محدثة بديلة هي «طالبان 2021». لكن الإشكال الذي لمسته -من خلال أحاديثي مع الناس هو عدم استعداد كثير من الأفغان لتصديق أصالة الصورة الجديدة. سمعت عبارة على ألسنة عشرات الشبان: «هذه صورة كاذبة ستثبت الأيامُ زيفَها»!

من الواضح أن الرئيس أشرف غني تشبث بالصورة القديمة واستعاد لحظة إعدام نجيب الله، ولم يصدق وعود طالبان ولا صورتها الجديدة، وهرب قبيل ساعات من دخولهم إلى كابل. أقلع غني بصناديق ملأى بالدولارات والذهب[110] وحط رحاله في دبي، مرسخا بذلك صورة السياسي المتعلم في الغرب، الجاهز لترك بلده عند أول هزة والقفز إلى حياة المنفى. لم يكن مستعدا لامتحان تغيّر طالبان من عدمه.

رفعتُ نافذة السيارة والتفت إلى حمزة، وسألته عما إن كانت طالبان قد تغيرت فعلا، وأي الصورتين نعتمدها لها؟ تبسم حمزة رافعا يده اليسرى،

110. قال أشرف إنه خرج من أفغانستان بملابسه وصندل يلبسه، بينما نشرت صحيفة «الإيكونومست» البريطانية في 28 أغسطس/ آب 2021 مقالا بعنوان: الإمارات وأفغانستان، دار تقاعد للمنفيين: لماذا انتهى المسؤولون الأفغان و(أموالهم) في الخليج؟ وسخرت فيه من أنه عبر السنين أرسل غني مئات الملايين من الدولارات إلى الإمارات عبر مقربين منه.

ماسحا بها شعره الكثيف الأسود المنساب دوما على الجانب الأيسر من جبهته، وقال: «لا شك أن الحركة قد تغيرت؛ فالبيئة التي كانت تعمل فيها تغيرت. فأفغانستان في التسعينيات، الخارجةُ من حرب مع السوفيات، والغارقةُ في أتون حروب المليشيات ليست أفغانستان الحالية. فالأفغان يومَها ما كانوا يريدون من طالبان إلا بسط الأمن والضربَ على أيدي المليشيات، وقد قامت بذلك على أحسن وجه. أما اليوم فأفغانستان (ضحك وقال: وهذه من محاسن الأمريكيين وعلينا الاعتراف بذلك) دولة ذات مؤسسات، ولديها حكومة تعمل، وجامعات منتظمة، وحريات نسبية. والمرأة الأفغانية جزء نشيط من أجزاء المجتمع، وهناك أحزاب سياسية ومجتمع مدني. فالبيئة بيئة مختلفة تماما عن تلك التي كانت فيها طالبان قبل عقدين، وهذا حتّم على الحركة التغير».

سكت حمزة ورفع سبابته كأنه تذكر أمرا:

يجب أن آخذك إلى مطعم يقدم وجبةً هروية لن تنساها!

شكرت الرجل على كرمه وأنا أفكر في قدرة الأفغاني على تذكر الضيافة تحت كل ظرف. رويت له قصة دخولي للمطار قبل أيام أثناء الوجود الأمريكي والجو الأمني المتوتر. كان الجو استثنائيا، ومطلوب مني أن أظهر على الشاشة في تلك اللحظات؛ فأنظار العالم كله تبحث عن أي لقطة من داخل مطار كابل قبل أيام من رحيل الأمريكيين أثناء الإجلاء الفوضوي. ومع ذلك فقد أصر أحد مسلحي حركة طالبان -عند دخولنا المطار- على أن نجلس حتى نشرب شايا ونأكل شيئا، بحجة أننا ما دمنا قد دخلنا تلك المنطقة فقد أصبحنا ضيوفه.

ابتسم حمزة وبرقت عيناه العميقتان السوداوان:

هذه عاداتنا!

ثم رفع سبابته مرة أخرى:

عودة إلى سؤالكم عن تغير طالبان؛ لا ننسَ أيضا أن ٪75 من الأفغان اليوم تقل أعمارهم عن 25 سنة. وهذا جيل عاش على الإنترنت والفيسبوك ومواقع وتطبيقات التواصل، ويسمع الآراء المختلفة وليس فيهم أحد ممن جرب الحقبة الطالبانية القديمة. وقد كانت طالبان التي جاءت هنا عام 1996 حركة مؤلفة في غالبية أعضائها من طلاب لم يعرفوا إلا مخيمات اللجوء في باكستان، أو القرى المعزولة التي ينحدرون منها وسط وجنوبي وشرقي أفغانستان. فلم يعايشوا أقواما مختلفين ولا احتكوا بأي بيئة مغايرة. وحتى سياسيوهم لم يكن لهم أي تواصل مع الخارج ولا مع الحكومات باستثناء علاقات مع باكستان والسعودية والإمارات، وبدرجة أقل الولايات المتحدة.

بدأت السيارة تصعد تلًّا مرتفعا، وظهرت بنايات أنيقة قصيرة على اليسار متدثرة بالأشجار الخضراء. التفت إلي حمزة:

هذه منطقة «باغ بالا»!

إنها كذلك. ألا تعني الجملة بالفارسية «الحديقة المرتفعة»؟

نعم!

أنزل نافذة السيارة ومد يده:

هذا مطعم قصر سليمان، أتمنى أن يعجبك.

أوقفنا السيارة في المواقف وترجلنا داخلين. بدا لي مطعما فخما يشبه قصور الأمراء في خراسان الغابرة. بدا المطعم مزينا بالأقواس والنقوش

الإسلامية والكتابات الفنية الفاتنة. عبرنا من الباب الواسع وصعدنا إلى الطابق العلوي. اعتدل حمزة وقال:

قبل أن أكمل فكرة تغير طالبان لا بد من أن تعرف لِمَ اخترت هذا المكان؟ هذا المطعم مشهور بأكلة هروية يستحيل أن تخرج من كابل قبل تذوقها.

سمعنا قرع أقدام النادل آتيا، ثم اقترب وقال بفارسية أنيقة:

سلام عليكم.. كيف يمكنني ضيافتكم؟

مال حمزة جهته، وطلب الوجبة الهروية، ثم مال على الطاولة:

دعنا نعد إلى موضوعنا.

أخرجت دفتر ملاحظات أسود وأمسكت القلم، فقال حمزة مغيّرا نبرته ومركّزا صوته:

لقد فوجئ الأفغان كلهم بدرجة تغيّر طالبان! دعني أعطك هذا المثال الذي عايشتُه؛ توجد منطقة تسمى ورْدكْ كانت بها نقطة للجيش الأفغاني على منطقة مرتفعة وبالذات في قرية تدعى تنغي. وكان في هذه الثكنة جنديان معروفان بقنصهما للناس وقتلهما لطالبان ولأبرياء من المنطقة. فلما اقتربت طالبان من المنطقة استسلم هؤلاء الجنود. أعلنت الحركة العفو عن الجميع كعادتها، لكن طالبان عندما وصلت إلى المنطقة تجمع الأهالي طالبين معاقبة الجنديين القناصين المعروفين. فرفضت طالبان ذلك قائلة إنها عفتْ عنهم وأن العفو لا يُرجَع فيه، ورفضت تسليم الجنديين بل أرسلت معهما مرافقين إلى كابل لحمايتهما حتى لا يتعرضا لاعتداء في الطريق.

اتسعتْ عينا حمزة وهو يتحدث عن هذه الواقعة؛ كان واضحا أن درجة العفو التي لمسها في القصة معبرة جدا عن مرحلة جديدة في عمر الحركة

مقارنة مع ما عرفه عنها من قبل. انتهزت اللحظة وقلت:

هذا واضح جدا. لكن، ماذا عن تغيرها في الجانب السياسي والإداري؟ هل ترى أنها ستكون قادرة على إدارة كفة الدلة؟

في هذه اللحظة وصلتْ إلى منخري رائحة شاي فاخر! فملتُ على الطاولة هامسا:

هل يمكن أن نبدأ بالشاي قبل الوجبة الهروية؟

أشار حمزة إلى النادل طالبا كأسيْ شاي وقال:

انظر! وقع تغير هائل في كافة المجالات؛ فالقيادات الحالية أكثر فهما للواقع وللعالم من قيادات التسعينيات. ففي التسعينيات مثلا قال أحد الصحفيين لرئيس وزراء حركة طالبان حينها الملا محمد رباني (ت 2001م): «إن الأمم المتحدة لا تعترف بكم»! فردّ رباني: «ونحن لا نعترف بالأمم المتحدة»! وهذا يدلك على الحالة الحالمة التي كان القوم يسبحون فيها حينئذ. أما اليوم فلهم كوادر عايشت الناسَ، وخالطت الساسةَ، وفاوضت الأمريكيين سنوات، ويفهمون أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن العالم.

وهل ثمة جوانب سلبية رصدتها في سلوكهم؟

تراجع حمزة في كرسيه وقال بنبرة مرتفعة:

كثير! أولا، لا بد أن نتذكر وجود خلافات فكرية داخل الحركة؛ هناك أطراف متشددة في بعض القضايا. فثمة مثلا عناصر ما زالت ترفض تعليم النساء، وكيف يمكنك أن تبني مجتمعا طبيعيا بنساء جاهلات؟ وهناك خلافات حول طبيعة العلاقة بالجماعات المصنفة غربيا بأنها إرهابية كتنظيم القاعدة. فشبكة حقاني مثلا تحتفظ ببعض التقارب مع القاعدة، وهكذا. ثم إن العامل الجامع بين كل هذه الأطراف كان محاولة إخراج الأمريكيين من

هذه البلاد ومعارضة حكومة كابل، وقد زال هذا العامل؛ فكيف يمكنهم اليوم إيجاد عامل موحِّد؟

ما إنْ أنهى حمزة فكرته حتى وصل النادل. وضع طبقا تفوح منه رائحة اللحم الطري الممزوج بالبهارات، فلاحظتُ أن قطعة اللحم التي وضعها بين يدي من رقبة الضأن. ابتسم حمزة:

هذه وجبة تدعى «كباب كردن ب برنج»، وكردن بالفارسي -كما تعلم- هي الرقبة، وبرنج هو الأرز. وهذه وجبة هروية صرفة. وهذا المطعم يطبخها طبخا جيدا، وليتك تأتي إلى هراة لتتذوقها في البيوت.

كان حمزة منطلقا يصف طبيعة الوجبة في مدينته هراة، متحدثا عن نمط الطعام وطريقة تحضيره والثقافة الهروية العميقة الكامنة وراءه. لكن ذهني شرد عائدا لطبيعة طالبان ووجهها الجديد، وقصةِ مفاوضاتها مع الأمريكيين على الضفاف الغربية للخليج.

اللحى العنيدة

«وهم جندٌ لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل، وهامات ولحى، وشوارب وأصواتٌ هائلة.»

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، موجها دعاة الدولة العباسية إلى أهل خراسان.

في 29 من فبراير/ شباط 2020؛ تقدم وزير الخارجية الأمريكي مايكل بومبيو إلى المنصة الأنيقة الحمراء داخل إحدى قاعات الاحتفالات في فندق الشراتون بالدوحة. وقُبيل وقوفه بقليل؛ كان أصحابُ العمائم الضخمة واللُّحى الطويلة الجالسون قربه يرددون مُحتفين:

الله أكبر! الله أكبر!

تحدث بومبيو بمناسبة توقيع اتفاق السلام بين طالبان وبلاده، لكنه لّمح في كلمته إلى ضرورة عدم الاحتفال قائلا: «أحسُّ بأن ثَمَّ ميلا للاحتفاء بالنصر... لكن النصرَ لن يكون إلا إذا عاش الأفغان حياة رغدة».[111] كان ضيق رئيس الدبلوماسية الأمريكية بأجواء الاحتفال تجسيدا لعنوان صحيفة «واشنطن بوست» عن أن «طالبان هزمت الأمريكيين في المفاوضات كما هزمتهم في ساحات الوغى.»[112]

غصت القاعة بالمدعوين المنصتين لكلمة بومبيو، وكانت من بين العيون المحتفية التي ترمقه عينا السيد شير محمد عباس ستانكزاي نائب رئيس

---

111. https://www.nytimes.com/2020/02/29/world/asia/us-taliban-deal.html

112. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

المكتب السياسي لطالبان في قطر. كان يجلس في ملابسه التقليدية وعمامته السوداء المُقلَّمة بالبياض، كان مزاجه مزاجا احتفاليا؛ فها هي اللحظة التي عمِل عليها سنوات تتكشف متحققةً أمامه. أحس بأنه نال بغيتَه لدرجة ضيق طرف المفاوضات الآخر بأجواء الاحتفال في يوم العرس!

يتميز ستانكزاي بطريقته في الحديث؛ فعندما يتحدث عن أمر مهمٍّ فإنه يرفع ناظريْه إلى الأعلى ويضع يده اليسرى على بطنه، وإذا استرسل خلَّل لحيتَه الكثة البيضاء بأطراف أنامله. كنت أنصتُ إليه وهو يجيب عن أسئلتي، ونحن جالسان داخل أحد فنادق الدوحة التي شهدت معظم تلك المفاوضات طيلة الأعوام الماضية. فقد شغل ستانكزاي منصب رئيس وفد التفاوض منذ عام 2015 وحتى توقيع الاتفاق مطلع 2020، وكان – بحكم منصبه الرفيع– حاضرا في كافة الجلسات المحورية في مسيرة التفاوض.

ستانكزاي نموذجٌ من نماذج قادة طالبان الحاليين؛ فهو ينحدر من جنوبي البلاد من محافظة لوغَر، حيث ولد عام 1963. درس الابتدائية في قريته، وتعلم بعض العلوم الشرعية على يد إمام في قريته بمديرية براكي برك، وبعد ذلك سافر إلى كابل للدراسة ومن هناك إلى الهند، ثم قطع دراسته ليعود إلى قتال السوفيات بعدما غزوا بلاده عام 1979م.

عندما سألت ستانكزاي عن كواليس بدء المفاوضات مع الأمريكيين، وأسباب قبول واشنطن بالحديث مع حركته؛ رفع بصره عاليا وعدل الطاقية السوداء المفتوحة أعلى جبهته، وقال: «ما إن دخلت الولايات المتحدة أتون حربها مع العراق حتى بدأنا نتنفس، فقد انشغلت عنا بهموم العراق مما خفف الوطأة علينا، ومكننا من ترتيب قواتنا وتنظيم هجماتنا عليها. وعندما بدأ الجو يتكهرب تحت أرجلهم بدؤوا التلميح للمفاوضات غير المباشرة»[113].

113. من مقابلتي معه يوم 27 سبتمبر/ أيلول، 2021.

كان يتحدث بصوت واضح وإنكليزية مفهومة. وخلال أحاديثه معي -في «فندق الشرق» على ضفاف الخليج- كان أحد مساعديه يدخل بين الفينة وأختها حاملا الشاي والماء والعصير. واصل ستانكزاي: «كان أمير المؤمنين الملا محمد عمر قد أشعر الحركةَ بعدم تحرجه من بدء المفاوضات مع الولايات المتحدة منذ عام 2006، وبرّر ذلك بأن هدفه من مقاومة واشنطن إخراجُها من البلاد، فإذا ما كانت ثَمَّ طريق أخرى لإخراجها فلا بأس من سلوك تلك الطريق».

استرسل ستانكزاي مستعيدا ذكرياته عن المفاوضات الصعبة مع الأمريكيين التي جرى معظمها في قاعة تبعد أمتارا من مكان جلوسنا؛ ففي هذا الفندق بدأت عام 2018 المرحلة الأخيرة من المفاوضات بين المبعوث الأمريكي إلى أفغانستان زلماي خليل زاد ورئيس المكتب السياسي لطالبان الملا عبد الغني برادر، لكن لقاءهما ذلك كان تجسيدا للكثير من الجهود التي سبقته.

فقد بدأ الأمريكيون منذ عام 2008 اتصالا مباشرا مع طالبان بعد أن أعياهم إقناعها بالحديث مع حكومة كابل؛ إذ كانت طالبان مقتنعة بأن حكومة كابل مفعول بها لا فاعلة، وأن الحديث معها لا قيمة له. فبدأت أول جولة من المفاوضات بين الأمريكيين وطالبان بميونخ الألمانية في نوفمبر/تشرين الثاني عام 2008، أي في الأيام الأخيرة من رئاسة بوش الابن الذي نفّذت إدارته غزو أفغانستان لإسقاط حكم طالبان.

لقد كان ذلك اللقاء لقاء مهمًّا حاول الألمان من خلاله كسر الحاجز النفسي بين الطرفين؛ فقد كان الأمريكيون يحملون صورة غُوليةً عن طالبان، وكانت طالبان تحمل صورة مشابهة عنهم. وقد أخبرني سيد طيب آغا -وهو المدير السابق لمكتب الملا محمد عمر- ببعض ما دار في ذلك الاجتماع الذي

حضره رئيسا للوفد الطالباني.

يقول طيب آغا: «عندما جلست على طرف الطاولة وتحدثتُ بالإنكليزية سألني أحد الأمريكيين مستغربا: «أتتحدث الإنكليزية؟ كيف تعلمتها وأين؟ أجبتها بهدوء: تعلمتها في المركز الثقافي الأمريكي في بيشاور»! ولعل وقع الجواب على الأمريكيين كان وقعا غريبا؛ فما كانوا يظنون أن الأنفس المتوارية وراء هذه العمامات «الغريبة» والملابس المختلفة قريبة منهم إلى هذا الحد.

استمرت المفاوضات المتقطعة بعد ذلك إبان إدارة الرئيس أوباما، غير أن لقاءات الطرفين لم تكن تناقش القضايا المصيرية في البداية. ويمكن التأريخ للبداية الفعلية للمفاوضات ابتداء من عام 2011؛ حيث بدأت العاصمة القطرية تشهد لقاءات متقاربة بين وفديْ الأمريكان وطالبان. كان الفريق الأمريكي بقيادة دبلوماسي متقاعد من الخارجية يدعى مارك غروسمان، بينما كان فريق طالبان تحت قيادة سيد طيب آغا مدير مكتب الملا عمر.

في الجلسة الأولى؛ كان غروسمان حريصا على أن يوضح لطيب آغا أنه لم يأت ليتفاوض مع طالبان، وإنما جاء ليمهد الطريق لتتحدث طالبان مع حكومة كابل. لكن آغا أوضح أن حركته لا ترغب في الحديث مع «دُمى» الأمريكيين في كابل.[114] وبعد انتشار أخبار اللقاءات غضب الرئيس الأفغاني حامد كرزاي مما اعتبره تجاوزا لسلطاته، وطلب من الأمريكيين إيقاف لقاءاتهم بطالبان فورا، وهو ما وقع بعد أشهر.

غير أن الطرفين عادا إلى اللّقاءات في الدوحة في السنوات اللاحقة؛ بل اتفقا على فتح مكتب سياسي لطالبان في الدوحة حتى يتمكنا من التفاوض بصيغة مَرْضِية ومستمرة. وهكذا افتُتح مكتب الحركة عام 2013 تحت

114. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

اسم: «إمارة أفغانستان الإسلامية». لكن كرزاي احتج على الاسم معتبرا المكتب «سفارة بديلة» عن سفارة بلاده في الدوحة، وطلب تغيير اسم المكتب. ثم انتهت الصيغة إلى أن يكون عنوانه: «المكتب السياسي لحركة طالبان». وتسارعت اللقاءات بعد ذلك حتى تُوِّجتْ بالاتفاق عام 2014 على الإفراج عن خمسة من قادة الحركة المعتقلين في غوانتانامو، مقابل إفراج طالبان عن الجندي الأمريكي بُووي بريغدال.

سألتُ السيد ستناكزاي عن أسباب اختيار قطر مكانا للمفاوضات؛ فقال إن الملا عمر وضع شروطا ثلاثةً للدولة التي ينبغي أن تكون مقر المفاوضات: أن تكون دولة مسلمة، ولم تشارك في غزو أفغانستان، وليست جارة لها. وأن هذه الشروط توفرت في قطر فاختيرتْ لذلك، رغم مساعي حكومات أخرى لذلك.[115]

يتذكر ستانكزاي حيرة الأمريكيين وتغير أمزجتهم بتغير الإدارات والرؤى في واشنطن؛ فبعد أن بدأت المفاوضات تأخذ طابعا جديا جاء عامُ 2016 بانتخاب رئيس جديد للولايات المتحدة. وهكذا أعلن دونالد ترمب في الشهر السادس من رئاسته خطته الخاصة بأفغانستان التي تقوم على عموديْن: إيقاف المساهمة في بناء أفغانستان، وإيقاف التفاوض مع طالبان وهزيمتُها عسكريا[116]. لكن الأشهر اللاحقة أثبتت شراسة مقاتلي طالبان وتقدمهم على الأرض.

أذكر أني زرتُ أفغانستان في هذه المرحلة مراسلا لقناة الجزيرة؛ ففوجئت بحجم الوجود الطالباني في طول البلاد وعَرضها، وفهمتُ –من

115. مقابلتي مع شير محمد عباس ستانكزاي كانت يوم 27 سبتمبر/ أيلول 2021، كما أخبرني سيد طيب آغا بنفس التفاصيل في مقابلتي معه بتاريخ: 29 سبتمبر/ أيلول 2021.

116. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

خلال أحاديثي ومقابلاتي المطولة مع المسؤولين الأفغان- شراسة المعركة وصعوبة حسمها عسكريا. وكان ممن تحدثت معهم يومها ضباطا من المخابرات الأفغانية تحدثوا معي -بشيء من الصراحة- عن غياب الأمل في هزيمة طالبان عسكريا، ولو بقي الأمريكيون دهرا.(117)

ولذلك ما إن دخل عام 2018 حتى تراجع ترمب عن قراره ذلك، وقرر الدخول في مفاوضات جادة مع الحركة. وهكذا اتصل وزير الخارجية مايك بومبيو بالدبلوماسي الأمريكي الأفغاني الأصل زلماي خليل زاد، طالبا منه قيادة جولات المفاوضات مع طالبان. وخلال أسابيع قام كل من بومبيو وزلماي بالسفر إلى إسلام آباد، متوسطين لدى سلطات إسلام آباد لإطلاق سراح زعيم طالباني يقبع في سجونها. وذلك السجين الذي تريده طالبان أن يكون رئيس وفد التفاوض لم يكن غير الرجل الذي سيوقع الاتفاق مع الأمريكيين: الملا عبد الغني برادر.

ما إن وصل برادر إلى الدوحة حتى تسارعت اللقاءات والمفاوضات بين الفريقين. كان زلماي يقود الفريق الأمريكي المؤلف من مسؤولين من البيت الأبيض، والخارجية، والدفاع، وأجهزة الاستخبارات المختلفة. وكان وفد التفاوض الطالباني مكونا من شخصيات سياسية من أبرزها برادرْ ونائبه ستانكزاي.

يتذكر ستانكزاي تلك الجلسات الطويلة بشيء من الرضا عن النفس: «كانوا من واجهاتٍ مختلفة وتخصصات متباينة؛ من البيت الأبيض، والدفاع، والمؤرخين، ورجال المخابرات، وكنا ناسا عاديين. لكنا تمكنا من تحقيق ما

117. اشترط الضباط حينها عدم ذكر أسمائهم لحساسية الموضوع وطبيعة عملهم. وقد تحدثت معهم على هامش مقابلتي مع رئيس جهاز الاستخبارات الأفغاني يومها معصوم ستانكزاي، حيث أجريت معه مقابلة بثتها قناة الجزيرة يوم 14 ديسمبر/ كانون الأول 2017 ويمكن مشاهدتها هنا:
(https://www.youtube.com/watch?v=YUJAdLK-wPg)

نريد. كنا واثقين من أنفسنا ونعرف ما نريد». ثم يميل ستانكزاي إلى الأمام ضاحكا: «كان الإخوة القطريون يستغربون من جراءتنا على الأمريكيين، ومن صلابتنا وتشبثنا بمواقفنا».

وبالفعل؛ فالتقارير المتسربةُ من داخل المفاوضات أكدتْ قدرةً تفاوضية لافتة لدى الوفد الطالباني، «فقد كانوا يقرؤون المقترحات كلمةً كلمةً، ويناقشونها كلمة كلمة كذلك. كانت قوتهم كامنةً في شورويتهم واتحادهم»[118]. بينما رأى كثيرون أن الوفد الأمريكي كان عكس ذلك ربما لنقص أوراق الضغط التي يملك؛ فقد كان رئيس الوفد الأمريكي «يفاوض بضعف مما جرّأ طالبان. وكان يحسبهم سيتقاسمون الحكم مع حكومة كابل، وهو ما لم يدُر برؤوس قادة طالبان أصلا».[119]

سألت ستانكزاي عن ذكريات اللحظات الحرجة في المفاوضات فصمت؛ جمع كفيّه وحكّهما، وطمح بصرُه إلى السقف الرمادي الأنيق للفندق. كان يلبس سروالا وقميصا أفغانيين أسودين، بينما تلوح ساعة صفراء في رسغه الأيسر. خفض صوته وقال:

«كنا مرة نتفاوض فضغطوا علينا لنقبل جزئيات لا نريدها، وعندما ملّوا من الضغط صرخ المسؤول الأمريكي: إذا كنتم تريدون من قواتنا أن تخرج فعليكم بالقبول، وإلا فنحن باقون عشرين عاما أخرى. غضبتُ وضربت الطاولة وصرختُ: عشرون عاما فقط؟ ابقوا 100 عام أخرى وستقضونها والنار تحت أرجلكم»!

ثم رفع يده ولمس مقدمة جبهته، ونظر إلى ساعته:

118. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

119. https://www.aljazeera.com/news/2021/8/23/us-envoy-zalmay-khalilzad-and-the-talibans-rise

«عندما بدأت المفاوضات طلب الأمريكيون مهلة أربع سنوات للانسحاب، فعرضت عليهم ثلاثة أشهر. وعندما استقلوها قلت لهم: أنتم أتيتم في شهر واحد، فينبغي أن تكفيكم ثلاثة أشهر للرحيل! مرت المفاوضات بلحظات صعبة أذكر منها أن الأمريكيين كانوا يضغطون على القطريين ليضغطوا علينا، ولما شكّوا في ضغط القطريين علينا طلبوا تغيير مكان المفاوضات، فاقترحنا الصين أو روسيا فرفض الأمريكيون ذلك».

كان ستانكزاي يتحدث بابتسامة موحيةٍ برضاه عن سلوكه وسلوك رفاقه أثناء المفاوضات، لكنه غضَّن جبهته فجأة، ووضع يده على بطنه ورفع بصره إلى الأعلى:

« في إحدى المرات ضغطوا علينا لنحوّل المفاوضات إلى الإمارات، أخذونا إلى أبي ظبي. وبدأت المفاوضات بحضور سعوديين وأمريكيين وباكستانيين وإماراتيين، وعلمنا لاحقا أن الإماراتيين تعهدوا للأمريكيين بإنهاء المفاوضات في شهر. بدأنا المفاوضات وبدأ الضغط علينا يصَّاعد. ولا أنسى أن جنرالا باكستانيا قال لي ونحن في الفندق: لمَ لا توقع؟ يجب أن توقع! فقلت له: أنا لن أوقع إلا على ما يرضيني، فقال لي: يا أخي أنا أخوك وأنصحك بالتوقيع، فقلت له: أنت لست أخي! بل عدوي! فغضب وخرج».

ضحك ستانكزاي مستعيدا احمرار وجه الضابط الباكستاني وقال: «بعد ذلك يئسوا منا فأرجعونا إلى الدوحة. ولعل الرحلة إلى أبي ظبي كانت بضغط من باكستان الباحثة عن مليارات من السعودية فأخذتها وانتهى الأمر»!

بعد عقبات كثيرة؛ تمكن الفريقان أخيرا من التوصل لاتفاق في نهاية صيف 2019، وأصبحت ورقة الاتفاقية جاهزة للتوقيع. وعقد الرئيس الأمريكي ترمب اجتماعا افتراضيا لمستشاريه وأطل عليهم زلماي خليل زاد

من الدوحة معلنا توصله لاتفاق مع الملا برادر. «في ذلك الاجتماع تحدث ترمب بحماس، معلنا لمساعديه أنه سيدعو طالبان إلى كامب ديفيد لتوقيع الاتفاقية؛ ففغر المستشارون أفواههم استغرابا لفكرته»[120]، لكن طلبان رفضت فكرة الذهاب إلى كامب ديفيد إلا بعد توقيع الاتفاقية.

خلال الأسابيع التالية للاتفاق الأولي؛ قتلت طالبان جنديا أمريكيا مما أغضب الأمريكيين. وبعد أيام التقى زلماي خليل زاد مع الملا برادر على عشاء في بيت وزير الخارجية القطري بالدوحة، وعندما احتج زلماي على قتل الجندي ما زاد الملا براد على قوله: «لا تنسَ أننا لم نوقع على الورق بعد»![121]

كانت طالبان تتفاوض مع الأمريكيين وإصبعُها على الزناد، ولم تعطهم شيئا دون مقابل يوما. كما كانت واعية بنقاط قوتها ومكامن ضعف خصمها المرهَق المتحفز للخروج الآمن، ولذلك لم تمنح اتفاقية الدوحة للأمريكيين إلا أمرين: تعهدا بعدم مهاجمتهم منسحبين، وعدم استخدام أفغانستان منصةً لمهاجمة الولايات المتحدة.[122] ويكشف نص الوثيقة عن اهتمام طالباني دقيق بالتفاصيل؛ فهي مؤرخة بالتاريخ الهجري والميلادي، ويشار فيها إلى طالبان بالإمارة الإسلامية، مع احتفاظ الأمريكيين في كل فقرة بالتذكير بأنهم لا يعترفون بتلك الإمارة. كما رفضت طالبان وصف تنظيم القاعدة في الوثيقة بأنه «إرهابي».[123]

120. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

121. https://www.washingtonpost.com/national-security/us-taliban-diplomacy-obama-trump-biden/2021/09/04/b11b6fca-0ce5-11ec-aea1-42a8138f132a_story.html

122. https://www.state.gov/wp-content/uploads/2020/02/Agreement-For-Bringing-Peace-to-Afghanistan-02.29.20.pdf

123. https://www.state.gov/wp-content/uploads/2020/02/Agreement-For-Bringing-Peace-to-Afghanistan-02.29.20.pdf

ولعل الأصداء التي خلّفها توقيع الاتفاقية في المجتمع السياسي والأمني الأمريكي كاشفة عن طبيعتها، ومسوّغةٌ لانزعاج مايك بومبيو من الاحتفاء أثناء التوقيع؛ فالجمهوريون -الذين وقعوا الاتفاقية- تبرؤوا من نتائجها المتمثلة في انحساب القوات الأمريكية، محمّلين بايدن تداعيات الانسحاب الفوضوي. والديمقراطيون -الذين نفذت إدارتهم الانسحاب تطبيقا للاتفاقية- حمّلوا الجمهوريين مسؤولية توقيعها.

هذا التدافع للمسؤولية عن توقيع الاتفاقية ونتائج تنفيذها ينبئ بشعور أمريكي دفين بهزيمة محبِطة. ولذلك لا غرابة أن عنونتْ صحيفة «واشنطن بوست» قصةَ الاتفاقية بعنوان: «طالبان تهزم الأمريكيين في المفاوضات كما هزمتهم في ساحات الوغى»؛ كما ذكرنا آنفا. وهذه الخلاصة الأمريكية تقود إلى التساؤل عن الأسباب التي مكنت حركةً قروية يقودها أفراد غير مدربين في فنون الإدارة والسياسة من هزيمة الولايات المتحدة بكل ما تعنيه من مؤسسات وإمكانيات.

وما جبُنَتْ خيلي ولكنْ تذكرتْ * مَرابطَها في بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرا!

امرؤ القيس بن حُجُر

عدتُ مرهقا إلى فندق «نجمة كابل» مساءَ 31 من أغسطس/ آب 2021، بعد ساعات من التَّجْوال بمطار كابل، والمقابلات المتلفزة. غير أن ذلك الإرهاق تحوّل فضولا لحظةَ أطلَّ الرئيسُ السادسُ والأربعون للولايات المتحدة محدِّثا شعبَه عن أسباب انسحاب قواته من أفغانستان. كنت تواقا لسماع تبرير الإمبراطورية الأمريكية رسميا لخروجها من بلاد الأفغان، بعد أن عايشتُ تسويغها لغزوها قبل عشرين عاما.

أخذت جهاز التحكم وجلست على المقعد المسامت للنافذة المطلة على أحد شوارع كابل الهادئة الغارقة في نوم أبدي. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بالتوقيت المحلي. أطل بايدن بملامح محايدة يلمع من خلفه العلم الأمريكي، وتتراءى ممرات البيت الأبيض. ما إن دخل في خطابه حتى لاحظت انشغاله بما يراه نجاحا باهرا في إجلاء جنوده ومدنييه، واصفا ذلك بأنه أمر «لم تقم به أي أمة في التاريخ»! ركز على محاسن الخروج مفاخِرا بالنجاحات المتحقِّقة في صيغته، لا في تفاصيل عشرين عاما من الحرب! ثم تحدث عن أن من أسباب الانسحاب إرجاع الجنود الأمريكيين إلى أحبائهم في الوطن.

وجدتني أردد بيتا لامرئ القيس بن حُجر (ت 80ق.هـ/ 545م) يعتذر فيه عن هزيمته في إحدى الحروب؛ فقد برر امرؤ القيس هروبه بأنه ليس هزيمة، بل إن خيله تذكرت موطنها قرب حمص بالشام فحنت إليه،

فخرجت فجأة من ساحة الحرب شوقا للوطن لا ضيقا بمسّ السلاح:

وما جبُنْتْ خيلي ولكنْ تذكرتْ * مَرابطَها في بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرا!

كان جليا في نبرة الخطاب أني لن أسمع جردا بالإخفاقات والنجاحات في حرب العَقدين المريرْين. واصلتُ الاستماع حتى شدتني تلك العبارة التي لم أصدق خروجها من بين فكيْ الرجل. أصغيت إليه يقول: «أفغانستان المعروفة تاريخيا بمقبرة الإمبراطوريات»![124] أغلقت التلفازَ مفكرا في المؤرخ الإنكليزي آرنولد توينبي. تذكرت عبارته المشهورة عن أن الحضارات لا تموت بل تنتحر! ثم راودني سؤال آخر: كيف استطاع الأفغان مصاولة الأمريكيين كل هذا الزمن، وكيف نجحوا في إيصال بايدن إلى تلك اللغة التي تحدث بها هذا المساء، مقارنةً بتلك اللغة الاستعلائية التي كان يتحدث بها رئيسه بوش الابن ومساعدوه مطالع الألفين؟

بعد 11 من سبتمبر/ أيلول بأشهر؛ تجمَّع رجالٌ من أهم مُلّاك القرار يومها في وشنطن، اجتمعوا في بيت نائب الرئيس ديك تشيني للمشاركة في ورشة يقدمها لهم رجل في السابعة والثمانين من عمره عن الإسلام والقرآن والمسلمين. أخذ القوم مجالسهم وتقدم المستشرق برنارد لويس (1916 – 2018) ليشرح نظريته التي غدت سياسة معتمدة في إدارة بوش. تحدث لويس –الذي بدأ حياته جاسوسا بريطانياً– عن أسباب هجمات المسلمين على الولايات المتحدة، والجذور الثقافية لعدم رفعهم الراية البيضاء للحضارة الغربية مقارنة بغيرهم.

بنى فكرته على أن ما يقوم به المسلمون اليوم هو صوت «الزفير الأخير» من أنفاس حضارة تحتضر، وأن على الغرب أن يذكّرهم بأن الزمن قد تغير لينهزموا نفسيا ويرفعوا الراية. واقترح غزو بغداد باعتبارها أهم معقل حضاري في

124. https://www.whitehouse.gov/briefing-room/speeches-remarks/2021/08/16/remarks-by-president-biden-on-afghanistan/

تاريخهم ليقتنعوا بأن الأمر قد انتهى. كما تحدث عن ضرورة قيام الغرب بعلمنة العالم الإسلامي بصيغة فوقية تماثل الصيغة التي قام بها مصطفى كمال أتاتورك (ت 1938م) في تركيا؛ «فلا بد أن يحكمهم رجال أقوياء علمانيون»![125]

كان لويس يتحدث بصراحة أكثر في مثل هذه الجلسات مقارنة مع تحفظه في مقالاته وكتبه. ولذلك قال لتشيني: «اضربوا العربَ بالعصيّ بين أعينهم، فهم لا يفهمون إلا لغة القوة»![126] وقد اعترف بعض هؤلاء الساسة لاحقا بأن أفكار لويس تلك تحولتْ إلى إنجيل يرشدهم لحظاتِ التفكير في ملفات المنطقة.[127]

لقد دخلت الولايات المتحدة أفغانستان بهذه الذهنية؛ بعقلية فرض علمنة فوقية كاسحة، وإقناع المسلمين بأن عليهم رفع الراية البيضاء. ولذلك يمكن القول إن ما جرى في أفغانستان أو العراق «هو امتحان لنظرية بقدر ما هو حرب كذلك».[128] لكن هذه النظرية البرناردية لم تنجح قطعا، بل غدتْ ضَحْكَةَ المؤتمرات العلمية والفكرية في السنوات اللاحقة، بعدما أثبت الميدانان العراقي والأفغاني فشلها فشلا مدرسيا مدوّيًّا.

إن ما وقع في أفغانستان من عودة لطالبان -بعد الغزو ومحاولة واشنطن وحكوماتها التي جاءت بها فرض علمنة فوقية على الأفغان- يمكن فهمه بالتأمل في مقولات مفكر اجتماعي مسلم توفي قبل 635 سنة؛ فقد تحدث المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون عن أن هذا النمط من المجتمعات القبلية المسلمة لا تنجح فيها الدعوات السياسية إلا إذا اقترنت بالعصبية والدين.

125. https://washingtonmonthly.com/2004/11/01/bernard-lewis-revisited/

126. https://archive.thinkprogress.org/dick-cheney-i-always-think-of-bernard-lewis-858c5f699fb5/ (retrieved on 28 October, 2021, 10:58 AM)

127. https://archive.thinkprogress.org/dick-cheney-i-always-think-of-bernard-lewis-858c5f699fb5/

128. http://content.time.com/time/specials/packages/article/0,28804,1970858_1970909_1971696,00.html

فأي دعوة غير متكئة على عموديْ الحاضنة العصبية والفكرة الدينية لا تنجح في البيئات المسلمة ذات الخصائص القبلية؛ حسب ابن خلدون. ولذلك كان عنوان ابن خلدون للباب السادس من مقدمته هو «في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»![129] ثم بين بعد ذلك أن شرط الحاضنة الاجتماعية ضروري حتى للأنبياء المؤيَّدين من السماء. والناظر إلى أسباب الصمود الطالباني ضد الهجمة الأمريكية العسكرية والثقافية لا يملك إلا تذكر هذا النموذج المفاهيمي الخلدوني.

فقد شكلت القبائل البشتونية العصبية الضرورية للحركة؛ فأمستْ تلك القبائل المحاربة الشرسة الحاضنة العصبية للحركة ثقافيا وسياسيا وعسكريا. فقد اختفى مقاتلو الحركة أثناء تعقب الأمريكيين لهم في البيئات البشتونية، كما ظهرت المقاومة الأولى من تلك المناطق حصرا. لكن ابن خلدون أيضا لا يرى أن العصبية وحدها كافية، بل لا بد معها من الفكرة الدينية لترطيب العصبية القبلية وتهذيب شعثها وتوجيهها جهة الإبداع والخلق.

ولذلك عنون الفصل السابع والعشرين من مقدمته ب: «في أن العرب لا يحصل لهم الملكُ إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين»![130] وبينّ بعد ذلك أن الأمر لا يقتصر على العرب بل يشمل من في معناهم من القبائل المسلمة كالقبائل الكردية والتركية والبربرية وغيرها، فـ«هؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان».[131]

فالفكرة الدينية ضرورية للعصبية القبلية، لتهذّبها وتشذّبها وتكبح عنفوانَها المعيق للاجتماع السياسي. فالبيئات المحكومة بالمنطق القبلي تفشل

129. ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 1/ 181.

130. ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 1/ 181.

131. ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، 1/ 181.

دوما في الاتفاق على أي مشروع سياسي بسبب التنافر الطبيعي بين الأفخاذ والفصائل وأبناء العمومة. لكن هذه القاعدة تنخزم إذا أُدخل عنصر الدين؛ لأنه إن حصل ذلك «كان الوازعُ لهم من أنفسهم، وذهب خُلُقُ الكِبْر والمنافسة منهم، فسهُل انقيادُهم واجتماعهم».[132]

فأي دعوة سياسية تحاول النجاح في بيئة مثل الأرض الأفغانية مكتوب لها الفشل مقدَّما ما لم تتدثر بدثار قشيب من الدين الملامس لشغاف القلوب. وهذا ما يفسر كون كل القادة السياسيين (حتى الشيوعي الأحمر)[133] يضعون مسميات إسلامية لأحزابهم، وهو ما يفسر أيضا تسليم أفغانستان قديما زمامَها للعرب الفاتحين تقديرا لمكانتهم الدينية. فقد كان من القواعد المستقرة عند أهلها -عربا وعجما- أن «خراسان لا تصلح.. إلا على رجل من قريش.»[134]. وبذا؛ فقد نالت طالبان الخصائص الخلدونية للصمود في وجه الغزو الأمريكي. فهي حركة دينية، ذات عصبية بشتونية وافرة، تصل إلى ما يقارب ٪50 من سكان أفغانستان.

سألتُ عدة شخصيات من طالبان عن تفسيرهم لأسباب صمودهم في وجه الأمريكيين؛ فاتفقت ردودهم على أفكار لخصتْها إجابةُ نائب رئيس المكتب السياسي في الدوحة محمد شير عباس ستانكزاي. ولكون إجابته معبرة عن مجمل آرائهم أوردها كاملة؛ فهي معبرة عن نظرة طالبان لنفسها ولعدوها، ومنبئةٌ كذلك بكيفية تمثُّلِ الحُماة للغزاة:

---

132. نفس المصدر أعلاه.

133. لعل حالة الجنرال الأوزبكي دوستم خير دليل على ذلك؛ فقد سمى حزبه «الحزب الإسلامي». كما أن قصة الدستور الأفغاني المكتوب أميركيا عام 2004-2003 منبئة عن الفكرة ذاتها؛ فالمواد الأُوَّلُ منه كلها منصرفة لإسلامية الدولة.

134. أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، تحقيق: أبو القاسم إمامي، (طهران: سروش)،2000 م.،253/ 2.

«هناك تأويلات كثيرة اليوم لتفسير انتصارنا على الناتو. بعض الناس سيقول لك إن باكستان هي السبب. نعم، أفرادنا كانوا في باكستان منذ 40 عاما، لا شك في ذلك. لكن الحقيقة أن باكستان لم تساعدنا عسكريا مطلقا، فهم فقراء وكانوا خائفين جدا من الولايات المتحدة. وكلكم تذكرون رئيسهم برويز مشرف وسجنه لنا وتعذيبه لأفرادنا. لقد كانوا حلفاء لأمريكا بصورة مطلقة. تفسيري لأسباب الصمود الأفغاني هو أننا قوم مسلمون أقوياء لم نُهزم قط. فالبريطانيون جاءوا ثلاث مرات وطُردوا. لقد حكموا الهند 300 سنة ولم يحكمونا لحظة واحدة، طردناهم ثلاث مرات. ثم جاء الروس في الثمانينيات وطُردوا. وهذا هو الذي تكرر مع الأمريكيين. إن الجندي الأمريكي يأخذ راتب عشرة آلاف دولار ويحمل معه طعاما خاصا معقَّما. يتحرك في المروحيات ويلبس السترة ومعه الكاشف، ولا ينزل إلى مكان إلا إذا كان قُصف قبله أو مُشّط بصريا على الأقل. أما المقاتل الطالباني فيكون مجاهدا واحدا، معه كلاشنكوف قديم وطلقات محدودة ولا راتب له. يأخذ من طعام أسرته ليجاهد. يسكن في الجبل مع أرغفة فحسب. الأهم من كل هذا أن الناس كانوا معنا يُدخلوننا بيوتهم، ويقاسموننا طعامهم. هذا المجاهد يقاتل لله وفي سبيل الله، وسيذهب إلى الجنة. هذه هي أسباب الانتصار. كنا نملك الرجال ولا نملك السلاح. وكان الأمريكيون يملكون السلاح وينقصهم الرجال. نحن أبناء الأرض ونعرفها وهم لا يعرفونها. كنا نقاتل عن بلادنا وهم كانوا خارج بلادهم. ولذلك كنا نستغرب من سلوكهم، فإذا جُرح لهم جندي يهربون كلهم، ونحن لسنا كذلك. ثم إن عندنا فكرة الاستشهاد والرغبة فيه، فمن أين يأتي الأمريكيون بهذه الفكرة؟ عندنا آلاف الناس يبكون لنسمح لهم بالاستشهاد. وأمريكا -من هنا وحتى قيام الساعة- لن تجد لها استشهاديا واحدا. لن تجد انتحاريا واحدا منهم يقدم نفسه للهدف الأمريكي من الغزو. هذه الروح الأفغانية هي التي هزمتهم».[135]

---

135. من مقابلتي معه يوم 27 سبتمبر/ أيلول، 2021.

خاتمة

كانت تلك الروح الأفغانية التي تحدث عنها ستانكزاي في ذهني وأنا أتقدم إلى الطائرة الجاثمة وسط مطار كابل عائدا إلى الدوحة. كنت أفكر في تصريحات ستانكزاي محاولا ربطها بالفكرة السيَّارة للمفكر الكندي تشارلز تيلر عن المتخيل الاجتماعي. فمن البيّن أن المقاومة ومطاولةَ الغازي مُتَخَيَّلٌ اجتماعي أفغاني متجذر. فالمتخيل الاجتماعي ما هو إلا فكرة متفق عليها، قادرة على جعل الفعل الاجتماعي ممكنا وقابلا للممارسة.[136] وبذا، فمناجزة المحتلين والضيق بهم متخيّل اجتماعي أفغاني قطعا، حسب استقراء التاريخ.

وصلتُ الطائرة وصعدت سلّمها بعد تلكؤ من طاقمها. فقد جاءت الطائرة جالبةً مساعداتٍ غذائيةً، ولم يكونوا يتوقعون عودة أي مسافر معهم. لكن جهودا بذلها السفير القطري في كابل سمحتْ لي بالعودة معهم بعد إجراءات واتصالات بمركزهم في الدوحة.

دخلت الطائرة وجلست فجاءني المضيف متهللا:

هذه أول مرة أعيش فيها هذه الحالة رغم مشواري المهني الممتد خمس عشرة سنة!

أزحت المعطف وعلقته وقلت مستفسرا:

أي حالة؟

هذه أول مرة أقود فيها فريقا من المضيفين على متن طائرة لا تحمل إلا

136. Charles Taylor, *Modern Social Imaginaries*, (Durham and London: Duke University Press), 2004, 23.

راكبا واحدا.

أدرت ناظري في ممرات الطائرة القطرية الخالية:

وأنا في هذه المهنة منذ ثلاثة عشر عاما ولم أركب طائرة وحدي قط، رغم أني وصلت إلى القطب الجنوبي وأخيه الشمالي.

ضحك الشاب النحيف الأسمر مبتعدا، بينما تحركت الطائرة مقلعة.

أرسلت بصري مع النافذة متأملا الأفق المتحرك. لمحتُ جبال أفغانستان، جرداءَ، حادةَ الأطراف كأنها مقاومٌ أفغاني يتربص بعدوٍّ غازٍ. تلك الصخور الراسخة التي لا تخلو سفوحها من كرّ وفرّ بين غُزاة وحُماة. يذهب الغزاة ويبقى الحماة صخورا مغروسة في الطين الأفغاني العتيق. مددت يدي وأغلقت النافذة مستغربا لمَ قفز بيت المتنبي (ت 354هـ/ 965م) إلى ذهني:

أنا صخرةُ الوادي إذا ما زُوحِمتْ * وإذا نطقتُ فإنني الجَوْزاءُ!

ارتفعت الطائرة إلى مداها، فأزلتُ حزام الأمان وأخرجت محمولي وفتحته عن كتاب في تاريخ أفغانستان. خُيل إلي وأنا أقرأ الكتاب أنه يتحدث عن الأحداث التي عايشت قبل أيام. أطبقتُه وفكرةٌ واحدة تثقل ذهني. لمَ ينجح الأفغان دوما في طرد الغزاة، ثم يفشلون بعدُ في إقامة دولة العدل والاتفاق؟ ينجحون نجاحا باهرا في إبطال الباطل، لكنهم يكبون حين يصلون لإحقاق الحق.

فهل ستكون هذه المرة استثناء؟ أم إن التاريخ لا يمل من تَكرار عاداته.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- آبادي، علي رضا. **أفغانستان في التاريخ المعاصر**. ترجمة: أحمد النادي. القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 2000م.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. بيروت: عالم الكتب، 1409هـ.
- الأفغاني، جمال الدين، **تتمة البيان في تاريخ الأفغان**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. 2014م.
- الأزْدي، عبد الغني. **كتاب المتوارين**. بيروت: دار القلم، 1410هـ.
- الأصبهاني، أبو الفرج. **مقاتل الطالبيين**. تحقيق: السيد أحمد صقر. بيروت: دار المعرفة، دون تاريخ.
- **الأغاني**، بيروت: دار الفكر، د.ت.
- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد. **المسالك والممالك**. بيروت: دار صادر، 2004م.
- البلخي، أحمد بن زيد. **مصالح الأنفس والأبدان**. جدة: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، 1424هـ.
- ابن حوقل، محمد. **صورة الأرض**. بيروت: دار صادر، 1938م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**. تحقيق: خليل شحادة. بيروت: دار الفكر،1408هـ - 1988م.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1994م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار**. بيروت: دار الشرق العربي، دون تاريخ.
- ابن الفقيه، محمد بن إسحاق الهمداني. **البلدان**، تحقيق: يوسف الهادي. بيروت: عالم الكتب، 1996م.
- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب. **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**. تحقيق: أبو القاسم إمامي. طهران: سروش، 2000 م.
- الجاحظ، عمر بن بحر. **البيان والتبين**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1423هـ.
- **الرسائل السياسية**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، دون تاريخ.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله. **معجم البلدان**. بيروت: دار صادر، 1995م.
- **معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم. **الروض المعطار في خبر الأقطار**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة ومطبعة السراج، 1980م.
- خليل زاد، زالماي، **السفير: من كابل إلى البيت الأبيض: رحلتي عبر عالم مضطرب**، ترجمة: بسام شيحا، وسعيد الحسنية. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2017م.
- الذهبي، شمس الدين. **سير أعلام النبلاء**. القاهرة: دار الحديث، 1427هـ - 2006م.
- زيدان، أحمد. **صيف أفغانستان الطويل: من الجهاد إلى الإمارة**. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر،2021م.

- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد. **الديارات**، تحقيق: كوكيس عواد. بيروت: دار الرائد العربي. 1986م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الرسل والملوك**. بيروت: دار التراث،1387هـ.
- ضعيف، عبد السلام. **حياتي مع طالبان**. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، دون تاريخ.
- الهروي، علي بن أبي بكر بن علي. **الإشارات إلى معرفة الزيارات**. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. **آثار البلاد وأخبار العباد**. بيروت: صادر، دون تاريخ.

English References

- Barfield, Thomas. *Afghanistan*: *A Cultural And Political History*. Princeton University Press, 2010.
- Curzon, George N. *Persia and The Persian Question*. London: Longman, Green, And Co. 1892.
- Dam ,Bette. *The Secret Life of Mullah Omer*, (Zomia Center), No date or place.
- Dupree, Louis. *Afghanistan*. New Jersey: Princeton University, 1980.
- Dupree, Nancy Hatch, A *Historical Guide to Afghanistan*. *Kabul*: Afghan Tourist, 2019.
- Fromkin, David .*A Peace To End All Peace*: *The Fall Of The Ottman Empire And The Creation of The Modern Middle east*. New York: Henry Holet and Company. 1989.
- Glieg M.A, Rev. G. R. *Sale's Brigade in Afghanistan*. London: John Murray, 1846.

- Marshal, Tim. *The Prisoners of Geography*. New York: Scribner, 2015.
- Mutma'in, Abdul Hai. *Taliban*: *A Critical History from Within*. Berlin: Alle Rechte vorbehalten, 2019.
- Neumann, Brian F. and Williams, Colin J. *The U.S. Army in Afghanistan Operation Enduring Freedom May* 2005–*January* 2009. WASHINGTON, D.C: CENTER OF MILITARY HISTORY
- Pierre, Briant, *From Cyrus to Alexander*. Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 2002.
- Preston, Diana. *The Dark Defile*: *Britain's catastrophic invasion of Afghanistan*, 1838-1842.New York: Walker and Company, 2012.
- Rashid, Ahmed. *Taliban*, *Militant Islam*, *oil and Fandamantalism in Central Asia*. Yale University Press, 2000.
- Riedel, Bruce. *What We Won*: *America's Secret War in Afghanistan* 1979-1989. Massachusetts: Brooking Institution, 2014.
- Sikorski, Radek. *Dust and Saints*. Toronto: Doubleday Canada limited, 1989.
- Talley, Rhea Stewart. *Fire in Afghanistan* 1914-1929: *Fait*, *Hope*, *and the British Empire*. New York: Double Day And Company, 1973.
- Tanner, Stephen. *Afghanistan*: *A Military History from Alexander The Great to The Fall Of The Taliban*. Massachusetts: Da Capo Press.
- Taylor, Charles. *Modern Social Imaginaries*. Durham and London: Duke University Press, 2004.
- Toynbee, Arnold J. *Between Oxus and Jumna*. London: Oxford University, 1961.
- Trousdale, William. *Dr. Brydon's Report of the Kabul Disaster and the Documentation of History*, Military Affairs, Vol. 47, No. 1 (Feb., 1983), pp. 26-30.